سمَّيتُها فاطمة

الرواية الفائزة بجائزة السرد اليمني (حَزَاوِي) ٢٠٢٢م

❖ اسم الكتاب: سميتها فاطمة
❖ الكاتب: مياسة النخلاني
❖ تحرير وتقديم: رياض حمّادي
❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة
❖ لوحة الغلاف: منال سيف
❖ رقم الإيداع: 8085 / 2023
❖ الترقيم الدولي: 978-977-86580-4-0

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة ولمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية.

حزاوي للتنمية الثقافية ٢٠٢٣ ©

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI

9 789778 658040

مياسة النخلاني

سمَّيتُها فاطمة

(فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزَاوِي)

٢٠٢٢م برعاية بنك اليمن والكويت)

ليست الأمور غالبًا على ما تبدو عليه، فما تراه أعيننا لا يمثل إلا القشرة الخارجية التي تخفي تحتها عالمًا آخر، في أوقات كثيرة، لا يمت بصلة إلى العالم الظاهري، وكأن القشرة التي تكونتْ وقستْ إنما تأثرتْ بعوامل التعرية والزمن، يحاول بعض ممن تكونت حولهم أن يتحرروا منها ويتنفسوا الهواء الطبيعي، بينما يجدها بعضهم فرصة لمزيد من الهروب من واقع لا يحتملونه، فيعملون على تقوية القشرة التي تعزلهم عن العالم الحقيقي ويخفون خلفها آلامهم ومخاوفهم ودموعهم، لا يدركون أن خوفهم من المواجهة هو سبب تعاظم معاناتهم، وكنوع من إرضاء الذات أو إسكات العقل وتأنيب الضمير يبحثون عن شماعة ليعلقوا عليها ما آلوا إليه، مع أن الحل أسهل بكثير، فقط لو يقتنعون بمواجهة المشكلة والبحث عن جذورها.

❋ ❋ ❋

الفصل الأول

١

انتصف الليل وامتزج سكونه بأصوات الجنادب المزعجة ولا يزال يتقلب في فراشه في محاولات يائسة لاستدعاء النوم. وعندما فاض به الكيل أزاح الدثار بعيدًا بزفرة تتصاعد من صدره وهو يغادر السرير. وكما هي عادته إذا جافاه النوم- وما أكثر ما يحدث ذلك– قرأ في مصحفه تاركًا المجال أمام الكلمات الربانية أن تخفف ما يثقل صدره ويقض مضجعه ويسلبه راحة البال والنوم الهانئ. قلب في الصفحات واختار إحداها وبصوت خفيض امتزجت نبراته الحزينة بسكون الليل الطويل مع ترتيل آيات القرآن الحكيم. تجاوب جسده مع الأحرف التي توإلى انسيابها من بين شفتيه المرتعشتين، مضى بعض الوقت وهو على حاله، حتى توقف عن القراءة. أغمض عينيه للحظات، وعندما فتحهما مجددًا كانت سحابة من الأسى الممزوجة بالدموع تسبح في مقلتيه وتشوش عليه الرؤية، مسح دموعه براحة يديه وأعاد قراءة الآية نفسها التي توقف عندها مرات متتالية وكأنه عاجز عن تجاوزها أو الوقوف عندها. رددها لسانه بصوت أخذ يرتفع بوتيرة متسارعة طاردًا السكون الذي كان يلف الغرفة منذ لحظات قصيرة، بدا التوتر على صوته بينما يهتز جسده وينتفض كعصفور صغير يلفظ أنفاسه الأخيرة.

"لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ. إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ"

سكت أخيرًا، بينما ظل جسده يرتعش كورقة خريف يابسة، وقد تمردت دموعه وتماهت لتسطر قصة حزن عجزت السنون عن محوها من ذاكرته. وضع المصحف على الطاولة القريبة منه دافئًا وجهه بين يديه وهو يتمتم بصوت متقطع "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا".

اهتزت كتفاه وعلا نحيبه، رفع رأسه وهو يتلفت حوله بوجلٍ كمن يبحث عن مخرج من دوامة الألم التي نشبت أنيابها الحادة بين تفاصيل روحه المتعبة، وعندما لم يجد غيرها منفذًا ينفس قليلًا عن البركان الذي يتأجج في أعماقه، فتح نافذة غرفته الوحيدة وملأ صدره بنسيم الليل البارد بشغفٍ كمن حُبس عنه الهواء لساعاتٍ طويلة، نظر نحو السماء باستنجاد وهو يضع يده على صدره وعلامات الألم تبدو واضحة على ملامحه المنقبضة، احتاج بعض الوقت لتتسلل السكينة إليه، ويستعيد قدرته على التنفس بانتظام.

استند على إطار النافذة وعيناه تتأملان المدينة التي تستلقي بهدوء تحت نور القمر الخافت، فخلف النوافذ ذات الإضاءة الخافتة ينام الآخرون بطمأنينة، بينما لا يحلو للمارد المجروح في أعماقه أن يتمرد عليه إلا في المساء، وكأنه يستمد قوته وجبروته من سكون الليل الطويل.

أوصد النافذة وألقى بجسده مجددًا على الأريكة، حدق في السقف الأبيض كمن يريد أن يستمد من بياضه الخافت بعض القوة لمواجهة الظلمة التي تتنفس في أعماقه: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا"! تسللت حروفها من عقله وتسلقت السقف، هنيهات حتى بدأت ترمي بظلالها عليه وعلى الأثاث القليل في الغرفة، ولم تكد تفعل حتى توشح السقف

ثوبًا أسودًا زخرفت أطرافه بقطرات حمراء، زحفت القطرات ببطء سريع في كل الاتجاهات حتى أتت على السواد بحمرتها القانية، وعندما لم تجد مكانًا إضافيًا تلتهمه، واصلت طريقها نحو أرضية الغرفة، شعر بها تنزلق على جبينه، مسحها بطرف إصبعه فإذا هي دبقة دافئة، ذكرته بملمس يعرفه جيدًا ولا يذكره: "يا لله". سيطر عليه الرعب فحاول الهرب بعيدًا لكن قوة ما قيدت حركته، وأجبرته على الاستلقاء حيث هو لتلقي المزيد منها. أزالها بيديه من على وجهه وجسده بجنون، وكلما فعل تلقى المزيد، ألقى نظرة وجلة على المكان حوله فإذا بغرفته وقد تحولت إلى بركة حمراء توشك أن تغرقه فيها.

"ساعدني!". استنجد بطيف رأه واقفًا خلف النافذة،، لم يحرك الأخيرة ساكنًا، بل راقبه بنظرات جامدة، وكأنه ينتظر أن تبتلعه البركة. بالفعل أوشك الدم أن يبتلعه كليًا، وشعر بحرارته تلهب رقبته، مد يده بيأس "ساعدني أرجوك!" تحرك الطيف من مكانه، فتح شباك النافذة الموارب، خاض في البركة الدامية بخطوات ثابتة واقترب منه، نظر إليه قليلًا وبدلًا من أن يحاول انتشاله أو مساعدته أمسك بياقة قميصه وأغرقه كليًا في الدم، وهو يتوسله بيأس: "أرجوك ساعدني!"

وحين شعر بتحرر رقبته من القبضة القاتلة، فتح عينيه وهو يلهث متوسلًا الهواء أن يداعب رئتيه، التقت عيناه بعينين غائرتين حاك الزمن حولهما تجاعيد متعرجة.

"أمي!".. قالها وهو يتشبث بيديها كطفل صغير.

"كوابيس.. كوابيس!! ألا نهاية لهذا العذاب؟!".. قالتها وهي تربت عليه وتذهب لتحضر له كوب ماء. استرق النظر نحو النافذة فإذا بالطيف قد اختفى، كما يفعل دائمًا كلما دخلت أمه الغرفة. حتى غرفته عادت لسابق حالها، لم تمسها أي أيادٍ شيطانية. أسندته والدته وجلست إلى جانبه، ضمته إلى صدرها وهي تمسد رأسه بيديها النحيلتين وتقرأ عليه آية الكرسي.

"لم أقتل أحدًا".. رددها بوهنٍ وهو ينتحب.

"اسم الله عليك.. اسم الله عليك يا ولدي".

"لم أقتل أحدًا"..

"خلاص يا ابني يا حبيبي، لا تعذب نفسك".

"تعبت يا أمي.. تعبت!".

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

ساعدته على العودة إلى سريره، وناولته حبة الدواء، وهي تضيف: "أخبرتك مرارًا ألا تنسى أخذ دوائك. لكنك لا تسمع الكلام".. ومن ثم طبعت على جبينه قبلة مبتلة بالدموع وهي تهمس في أذنه: "نم الآن ولا تفكر في شيء، ما حدث قد حدث"!

"أمي، أخبريني ما الذي حدث بالضبط، ليتني أتذكر؟!"

"لم يحدث شيء، نم الآن ولا تفكر بشيء".

غطته جيدًا وخرجت بعد أن أطفأت النور.. على الأقل تعلم أنه سينام الآن دون أي صراخ أو كوابيس.

٢

وضع خالد رأسه على الوسادة محاولًا استعادة أنفاسه التي أوشكت أن تنقطع قبل قليل. حانت منه التفاتة نحو النافذة لكن لا شيء سوى ظلمة الليل البهيم. الكابوس ذاته يكتم على أنفاسه كلما تجاهل أخذ حبوبه المنومة. هواجس وظلال أشباح تتحرك من حوله. صراخ ودماء.. حجر بحجم الكف يقطر دمًا قانيًا يكوِّن بركةً تكبر شيئًا فشيئًا حتى تكاد تبتلعه، وأمه على مقربة منه تنهار باكية تلطم خديها. صور متفرقة وكلمات مبهمة، هي كل ما يتذكره، يحاول تجميع أحداث ذلك اليوم المشؤوم لكنه يعجز، وكلما توغل أكثر في ذاكرته كلما تشتت الأحداث، وتفلتت من يده.

يختفي كل شيء ليجد نفسه محاصرًا بنظرات طيف خالية من أية تعابير. لا شيء واضح سوى أنه يسير في طريق لا يعرف نهايته.

كم يشتاق لتلك الليالي البعيدة حين كان يضع رأسه على وسادته ويغط في نوم عميق، لا يستيقظ إلا على صوت المنبه أو صوت أمه الحنون، لا يعرف شيئًا اسمه حبوب، أو أرق، أو كوابيس. حينًا تترآءى له نفسه وهو يمسك بحجر يدق بها رأس أحدهم وحين يتعب من توجيه الضربات المؤلمة للنائم على الأرض، يقترب منه، فيرى نفسه ممددًا يتفجر الدم من رأسه ويحدق فيه بنظرات شامته يفر منها فزعًا خائفًا، فكيف يكون قاتلًا ومقتولًا في الوقت نفسه، خائفًا وشامتًا في اللحظة ذاتها! وطيف يملك ملامح وجه يحفظ تفاصيله، يقف هناك يراقبه طوال الوقت من

النافذة، وأحيانًا تنعكس صورته على صفحة بركة الدم التي تحاول أن تغرقه، لا يفعل شيئًا سوى أنه يرقبه ثم يمضي بهدوء.

رغمًا عنه يتآكل تحت وطأة شعور بالذنب من جرم ارتكبه ويجهل تفاصيله، لا يملك أي تفسير كيف ارتكبه ولماذا انمحى من ذاكرته كليًا، وها هو يُعاقَب عليه كل لحظة من لحظات يومه، من دم تلطخت بحمرته الدافئة يداه.

تمضي سنوات عمره بأيامها الطويلة المملة ولياليها الغارقة في دموعه وتوسلاته لطيفٍ لا يلبث أن يظهر حتى يختفي وسط الظلام، متجاهلًا كل استغاثاته: "ليته لا يرحل!" تمتم بخفوت: "وليته لا يأتي" أعقب عقله الباطن، ليت كل هذه الأدوية التي لا تجيد سوى تحويله إلى كيس أسمنتي لا حياة فيه ولا حركة أن تختفي هي الأخرى من أمامه، فيدفن كابوسه الدموي دون رجعة، فلا هو يتركه يكمل حياته بهدوء، ولا هو يجهز عليه ويريحه من حياة لا يريدها.

"لكنه لا يموت!" وكأن أحدهما يستمد حياته وقوته من الآخر، ولا مجال لانفصالهما عن بعضهما إلا بموت خالد نفسه. لكن.. "لماذا هو دون سواه يتحمل الذنب كله بينما البقية يعيشون حياة طبيعية!" سؤال عجز عن العثور على إجابة مقنعة له، أو حتى غير مقنعة.

بدأ الخدر يتسلل إلى أطرافه، خدر لذيذ ينبئ بنوم عميق، أعمق من أن يتيح المجال لأي كابوس أن يعبث به. مر أمام عينيه شريط لأحداث متقطعة ومتسارعة، محفوظة في نقطة يجهلها من عقله الباطن، بينما يتسارع الخدر بالتسلل إلى جسمه، ويبدأ عقله بالاستعداد لنوم طويل

تكون الأحداث والشخوص أكثر وضوحًا: أشجار المانجو، الحديقة الواسعة، سعيد، والده محسن، لا، عمه محسن، بل والده، لا عمه! يهز رأسه بعنف يحاول تبيان هل من يمسك به ويحاول أن يثنيه عن إكمال جريمته هو عمه محسن أم أبوه محسن! هز رأسه بعنف محاولًا التشبث أكثر بوعيه وإدراكه، لكن سريعًا ما يتشتت الإدارك خلف مشاعر اجتاحته هي مزيج من الاحتياج والشوق الجارف لمحسن بغض النظر عمن يكون، وصلة قرابته به. احتياج ونفور في آن واحد، شوق ولا مبالاة، حب وكره، مزيج متساوٍ من كل هذه المشاعر تزاحمت في قلبه، فما عاد يتبين هل هو يحبه أم يكرهه! لكنه يشتاق إليه، هذا الإحساس الوحيد الذي يستطيع أن يميزه الآن وهو في هذه الحالة من الوعي واللاوعي، ومع ذلك يكره هذا الاشتياق ويمقته.

"آه".. تحررت من صدره بينما انسابت دموعه على صدغيه واستقرت على وسادته. وبينما هو يصارع هذه الأحاسيس يرى جسده ممددًا أمام عينيه يتخبط كما يتخبط الطير حين تقطع السكين رقبته، حاول أن يعتدل في جلسته لكن الخدر استوطن كل خلية فيه، وراح عقله يسبح في بحر يتهادى بنعومة، أغمض عينيه وهو يتمتم "ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا.." وسريعًا غط في نوم عميق.

❋❋❋

٣

في ذلك الوقت كانت والدته تتكور على سريرها وبين الحين والآخر ترهف السمع علَّه يعود إلى صراخه من جديد، لكن لا شيء غير السكون وهمهمات ليلية مبهمة. أطفأت النور ووضعت رأسها على الوسادة دون أن تغمض عينيها، فهذا حاله منذ الحادث إياه. سنوات مرت عليه بلياليها وأيامها الطويلة ولا يزيد حاله إلا تدهورًا، فلا تكاد تنام حتى تصحو على صراخه وتوسلاته لطيفٍ لا يراه أحد سواه، وكأنه يعيش في أعماقه، يقتات على طاقته وصحته وراحة باله، تهرع إليه لتناوله حبوبه التي تحوله إلى جثة هامدة لا تتحرك حتى الصباح، ورغم أنه يعاندها ويعاند نفسه برفضه تناولها لكن ما أن تسوء حالته ويعصف به الخوف، حتى يرضخ ويستسلم لها مجبرًا.. ينام هو لتعجز هي عن النوم، لا تتذكر أن شمسًا يوم أشرقت عليها وهي نائمة، فكأنهما يتناوبان النوم، تنام هي ساعات أول الليل، لينام هو آخره، وتأرق هي حتى الصباح.

أتعبها حاله، ولا أحد بجانبها يساعدها بالاعتناء به، بل هو ذاته يرفض أن يشاركه أحد همه، أو يساعد نفسه، وحتى عندما اقترحت عليه أن يتزوج عله يجد من يؤنس وحدته، ولعل كائنًا حيًا بجانبه يبعد عنه الطيف الذي يؤرقه دون كلل أو ملل، وكلما انسحب لسانها بهذا الاقتراح: "إن كنت قد أتعبتك فسأترك لك البيت وأرحل." يقولها وهو يرمقها بنظرات غاضبة متذمرة "إلى أين يرحل المجنون، وقلبي بيته!" ثم كيف يتركها وما عادت تتمسك بالحياة إلا لأجله!

لم تدَعْ طبيبًا لم تعرضه عليه، ولم يترك دواء لم يجربه، لكن حاله لا يزيد إلا سوءًا

"مشكلته نفسية بحتة، والأدوية لا تقوم إلا بتهدئته ومساعدته على النوم، إن أردتم شفاءه التام عليكم بحل المشكلة من أساسها".. قالها الطبيب المعالج بعد أن كثرت زياراته له دون تقدم يُذكر.

- لكنه لا يتذكر شيئًا على الإطلاق مما حدث؟
- ربما لا يريد أن يتذكر، أو جزء منه على الأقل لا يريد ذلك، فبعض الأحداث التي تخيفنا جدًا، وندرك أننا ارتكبنا من خلالها جرمًا ما، نعمد لرميها في جزء خفي من عقولنا بحيث لا نستطيع نحن أنفسنا الوصول إليها.
- والحل؟!
- الحل بيد الله تعإلى ثم بيده هو، استمري بالمحاولة معه، قد تجدي بابًا تدخلي من خلاله لعقله العنيد، أو على الأقل تفسحي له المجال ليتسرب من النقطة المظلمة إلى دائرة الضوء.

لا تدري كيف تجد ذلك الباب أو المنفذ وابنها يرفض بعناد أن يمد يد العون لنفسه، أو حتى أن يسمح لها بالمحاولة. لكن.. لِمَ عليه أن يتلقى اللوم وحده، فهي أيضًا ملومة، بل لعلها الملوم الأول في كل ما حدث، فلو انتبهت منذ البداية لشكاواه وتذمره المتكرر، لو لم تستهن بالعزلة التي حبس نفسه فيها لسنوات طويلة لكانت الآن تنعم ببيت هادئ يحيط بها أحفادها.

لا هي انتبهت وأعطت الأمر الحجم الذي يستحقه، ولا محسن استمع لكلامها في المرات القليلة التي خاطبته بأمر خالد، كلاهما كانا يعتبران الأمر مجرد تذمرات طفولية لا أكثر، يُمنيان نفسيهما بأنه سيكبر ويعقل، لم يعطيا الأمر حجمه الحقيقي، ولم يدركا أن ما كان يعتمل في صدره أكثر من مجرد غيرة عابرة.

أخذت نفسًا عميقًا فلا تملك سوى انتظار الفرج من حيث لا تحتسب. "خيرة الله"، تمتمت بها وهي تغمض عينيها بعد أن أنهكها التفكير، لكن لم تلبث أن فتحتهما وهي تعتدل في جلستها. عقدت حاجبيها وهي تركز في نقطة لا مرئية في الظلام، وكأنها تتبع خيط أمل لاح لها من بعيد.

" لم لا!"

تمتمت بها، رغم شعورها أن ما تفكر فيه غير منطقي، لكن لم يتبقَ أمامها إلا هذا الباب، ولن تتوانى عن طرقه مهما كلفها الأمر. ستطرق باب من يزور طيفه ابنها كل ليلة وبدلًا من أن يظل موجودًا في البيت بهيئة طيف يدمر حياة ابنها، لما لا تذهب إليه وتحضره إلى هنا روحًا وجسدًا، فلعل حضوره أن يغيِّر من الأمور الكثير!

بعد طول تفكير وضعت رأسها على الوسادة، وابتهلت إلى الله أن يأتي الصباح سريعًا.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

١

في واحدة من القرى المتناثرة على جبل صبر المطل على مدينة تعز، وبعد زواج دام أكثر من ثماني سنوات شعرت خديجة، الزوجة الريفية البسيطة، بآلام المخاض. كان حملها الرابع خلال سنوات زواجها من "قائد"، الزوج الطيب الذي ترك القرية ليعمل في محل خياطة في مدينة تعز، يعمل طوال شهور السنة، ويعود إلى قريته في العام مرتين أو ثلاثًا يطمئن على بنياته وزوجته وينال قسطًا من الراحة ثم يعود لعمله ووحدته.

كان قائد الثالث بين إخوته، يسبقه محمد الابن الأكبر واخته فتحيه، ويليه أخويه سيف ونذير.

تزوج قائد وعمره لا يتجاوز العشرين من فتاة بسيطة اختارتها له والدته. استقر معها في بيت والده، وعمل في بداية حياته مزارعًا بأرض والده، لكنه لم يتفق مع أخيه محمد الذي كان يَشعر ويُشعر الجميع أنه الوحيد الذي يملك الحق بإدارة الأرض كونه الأكبر، ووقف مع والده فيها منذ سن مبكر. بعد تدهور صحة الوالد أصبح هو الوحيد المخول بإدارة الأرض كيفما يشاء. سيف ونذير كان حظهما أفضل من حظ قائد بالتحاقهما بالمدرسة. بعد توتر العلاقة بين الأخوين ترك قائد الأرض لأخيه، و اشتغل عاملًا لدى الآخرين، يحرث أرضًا هنا ويزرع أرضًا هناك، وأحيانًا يشتغل في أعمال البناء بأجرة يومية، وحين ينعدم العمل يجمع الحطب ويبيعه حين لا يجد عملًا بالمرة. كان يكسب القليل لكنه يكفيه عناء ومشقة الشجار مع شقيقه محمد الذي امتدت سلطته للبيت

بعد وفاة والدهم. لم يكتفِ بحرمان جميع إخوته من ميراث أبيهم بل اعتبر نفسه صاحب البيت والأرض وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة ولا حق لأحد في معارضته. وليكسب "قائد" راحة باله قرر ترك بيت العائلة والاستقرار مع أسرته الصغيرة في بيت منفصل، لكن في قرية صغيرة يبني الناس بيوتهم ليعيشوا فيها هم وأبناؤهم وأحفادهم. لم يكن إيجاد بيت للإيجار بالأمر الهين، كانت أغلب البيوت قديمة ومتهالكة، ومع ذلك استقر في واحد منها على أمل أن يراجع محمد نفسه ويسلمه أرضه التي ورثها من والده ليبني عليها بيتًا له ولزوجته وبناته. وعندما ضاق به الحال ترك زوجته وبناته وسافر للمدينة للبحث عن عمل دائم، هناك صادف عذابا من نوع آخر، فهو لا يحمل أي مؤهل دراسي، لا يملك غير ساعديه وخبرته الزراعية والتي لا تجدي نفعًا في مجتمع لا يزرع، عمل حمالًا لوقت ليس بالقصير. مرت شهور لا يرسل فلسًا لزوجته وابنتيه اللتين عُزّزتا بثالثة دون أن يأتي الولد، لكنه أخيرًا وجد عملًا في محل خياطة، تعلَّم أصول المهنة ليستقر فيها طوال السنوات اللاحقة.

لم يكن يغصه سوى خلفته التي تميزت كلها بالبنات، ليس لأنه لا يحبهن لكنه أصبح محل سخرية وتندر في مجتمع ريفي عتيق يرى أن البنت خلفة ناقصة لا يكملها ويداري عورتها سوى الأولاد. لم يعبأ بما يقال ولم يكن يغيظه سوى محمد الذي كان دومًا يتعمد أن يُذكِّره ساخرًا بخلفته، يعرض عليه متهكمًا أن يزوجه بأخرى لتنجب له الولد، ومع ذلك لم يكره "قائد" يومًا بناته، لكنه تمنى من أعماق قلبه أن يرزقه الله بالولد كي يكون سندًا له وعونًا لأخواته ووالدته. لذا، وبمجرد أن أعلمته زوجته

بحملها الرابع التفت إلى بنياته الثلاث وتحرك لسانه دون إرادة منه بالجملة التي تتكرر في كل حمل "يا رب ولد".

انتظر شهورًا طويلة على أحرِّ من الجمر، وما أن أطلقت زوجته صرخات المخاض المتألمة حتى تعلَّق قلبه بين السماء والأرض، خوفًا عليها وانتظارًا لأمنيته أن تتحقق فيرفع عينيه بعيني أخيه بكل ثقة وقد أصبح أب الأولاد والبنات، مرت ساعات الليل طويلة، ومع أول إشراقة لشمس الصباح تعإلى صراخ طفل في الدار "ها بشِّري!" استقبل القابلة على الباب متلفهًا ودون أن ترفع بصرها نحوه أخبرته أن المولود أنثى.

"وليس الذكر كالأنثى".. ترددت بين جدران قلبه وهو يتهاوى على الأرض، ثم ما لبث أن تحامل على نفسه وتوجه إلى ابنته الجديدة ورفيقة عمره المنهكة، اعتذرت له بنظرات كسيرة، فطبع قبلة حانية بين عينيها وحمل الصغيرة بين يديه يردد الأذان في أذنيها ويقبل يديها الصغيرتين، "فاطمة.. سأسميها فاطمة على اسم والدتك رحمها الله."

تقافزت الدموع إلى عيني الأم سعادة بالاسم وبزوجها الطيب الراضي بقضاء الله وقدره.. وكان على "قائد" في الصباح أن يتحمل مباركة أخوه المتشفية "لا تقلق، ستجد لهن كلهن أزواج، فلا تنس أن خلفتي كلها أولاد"!

لم تكن المرة الأولى التي يلمح فيها أخوه محمد لهذا الأمر، فهو في كل مجلس يخبر الجميع أن بنات أخيه لن يكن إلا من نصيب أولاده، فالبنت لا تتزوج إلا ابن عمها، وإن كان كلامًا لا يؤخذ على محمل الجد لصغر الأولاد والبنات لكن في قرارة نفسه أدرك قائد أن محمدًا يعني كل

ما يقوله، لم يجادله يومًا فلكل حادث حديث، ليقل ما يشاء وليفعل هو ما يريده.

بعد أن تعافت زوجته وأصبح بمقدورها الاعتناء بالبيت ودَّعها وودع بناته عائدًا إلى المدينة حيث مصدر رزقه. يقضي طوال النهار خلف ماكينة الخياطة، يعدل هذه ويخيط تلك لكن عقله معلَّق عند زوجته وبناته، لم يكن يرتاح لفكرة تركهن وحيدات دون وجود حماية لهن، أثناء عمله انغرست إبرة الخياطة في إبهامه فعصر الألم قلبه، كل واحدة منهن عنده أفضل من عشرة أولاد، لكنه يتمنى الولد في اليوم ألف مرة ليطمئن عليهن إن أصابه مكروه، فلا يجدن أنفسهن تحت رحمة عم أناني، أو خال لا يملك من الوقت أو حتى المال ما يكفي للاعتناء بهن.

ومع ذلك فوَّض أمره وأمرهن إلى الله، فهو خير حافظ وخير سند.

ورغم مشقة الأمر عليه ماديًا ومعنويًا ضاعف قائد من أوقات زياراته لبنياته، فلا ينقضي شهر إلا ويقضى منه عدة أيام معهن ليعود بعدها إلى عمله.

❋❋❋

٢

توالت السنوات على الوتيرة نفسها. كبرت فاطمة وأخواتها في قريتهم الصغيرة، والوالد موزع هنا وهناك ليوفر لهن ولوالدتهن لقمة العيش، خلال زياراته المتكررة إلى القرية خاطبه أخوه أكثر من مرة ليعود ويعمل معه في الأرض بشرط ألا يطالبه بالتقسيم، ووعده أن يعطيه نصيبا من ريع الأرض كما يعطي البقية وفق ما يراه هو مناسبا. رفض عرضه مكتفيًا بما يكسبه من عمله في تعز.

في البداية كانت تنتابه مشاعر القهر والألم أن يتعرض وبقية إخوته لسرقة حقوقهم بهذه الطريقة.. وممن؟ من أخيهم الأكبر الذي يفترض أن يعتني بهم بعد وفاة والدهم، لكن ومع انقطاع كل السبل لاستعادة الحق لم يجد الإخوة غير تفويض أمرهم إلى الله، فكل أوراق ملكية الأرض والبيت كانت بيد أخيهم محمد كونه كان الساعد الأيمن لوالدهم منذ وقت مبكر للغاية.

"لو كنتْ مكانه ربما فعلت الشيء نفسه." قالت له زوجته، فأومأ برأسه موافقًا وإن كان لا يعني الموافقة على سلب حقه، ومع ذلك قرر ألا يهدر وقته وجهده في المحاكم، ففي كل الأحوال لا يملك المال ليصرفه على قضية سينتهي عمره ولن تنتهي.

مع الوقت تأقلم مع الأمر الواقع. اعتبر أنه لم يرث شيئًا على الإطلاق؛ ليحافظ على علاقة أخوة تربطه بإخوته خاصة محمد، وإن لم

تكن بدرجة من القرب والود الذي كان قبل الخلاف الذي نشب بينهم لكنها كانت أفضل من القطيعة بشكل نهائي.

ببلوغ ابنته الكبيرة سلوى الثانية عشر من عمرها طرق أخوه محمد باب بيته طالبًا يدها لابنه ياسين. ظن أن الأمر مجرد مزحة، فياسين لم يكمل عامه الرابع عشر وسلوى لا تزال طفله تعود من مدرستها، ترمي حقيبتها وتقضي طوال النهار في اللعب بجانب البيت، فكيف تتحول في ليلة وضحاها إلى زوجة تتحمل مسؤولية زوج وبيت، وفي القرية زوجة الابن تتحمل أعباء تقصم ظهرها وهي شابة فكيف بها وهي طفلة!

شاهد العديد من البنات وهن يُسحبن من ساحة اللعب إلى مقصلة الزواج منذ سن صغير، لم يعجبه الحال يومًا، وكثيرًا ما خاطب أولياء أمورهن بهذا الشأن، لكن كلامه لم يكن ذا قيمة لديهم، فهل يأتي اليوم الذي يُسلِّم طفلته لهذا الواقع الذي لن تتحمله ولن يتحمله أبدًا! حتى وإن كانت لديه عشر بنات فلن يفكر أبدًا بالتخلص من إحداهن بهذه الطريقة ليخف الحمل عليه.

هاج غاضبًا على أخيه من تفكيره القاصر، مذكرًا إياه بعمر ابنته التي لم تتخط حاجز الطفولة بعد، مؤكدًا عليه أنه لن يقطع له أي وعد، وابنته حين تبلغ سن الزواج فلن يزوجها إلا لمن يوافق هو عليه وتوافق عليه ابنته، سواء كان قريبها أم لا. كانت هذه العبارة كفيلة بزج الأخ الأكبر في موجة غضب عارمة، فكيف يتطاول عليه من لا ولد ولا سند له بتلك الطريقة! نسي نفسه وأنه أب لأربع بنات، لا بد أن يحمد ربه ويشكر له صنيعه بأنه يفكر بسترهن وتخفيف العبء عليه، لكن في

المقابل يجد منه تصرفًا أقل ما يمكن وصفه بأنه غير لائق. بنات أخيه لن يخرجن لأحد من خارج الأسرة، هذا أمر على "قائد" أن يفهمه جيدًا، لن يسمح له بأن يهينه ويهين العائلة بتصرفاته الطائشة.

كان الأمر برمته مجرد محاولة منه لإثبات الذات، وتمديد السلطة التي تخطت البيت والأرض لتشمل بنات أخيه، شعوره بأن أخيه ضعيف ويشعر بالذل لخلفته الخالية من أي ولد يحمل اسمه واسم عائلته من بعده جعله يعتقد بأنه قادر على التحكم بمصيره ومصيرهن.

"لن تجد من يقف معك وبناتك لن يتزوجهن غير أولادي، إن لم توافق فسيقضين حياتهن عوانس."

"لا شأن لك ببناتي."

"أنا كبير العائلة، ولا ولد لك يسندك، لذا كلمتي هي التي تسير على الجميع، سيتم الزواج شئت أم أبيت، سأتصرف حيال الأمر بنفسي وبطريقتي الخاصة"!

غادر محمد البيت مغضبًا، ليتركه في خضم عاصفة من الغضب والمخاوف والأفكار المتضاربة. كان يشعر بالغيظ، فالأمر تعدى المعايرة ليتجاوز حدود المعقول، وكأنه قد فقد رجولته وقدرته على الاعتناء بنفسه لمجرد أنه لم يُرزق بولد. بأي حق يهدده ويتحكم بمصير بناته، بعد أن سلبه حقه في أرض أبيه وبيته يأتي اليوم ليتحكم بمصير بناته! حاول إشراك أخويه سيف ونذير في الأمر ليستعين بهما بمواجهة محمد، لكن لم يجد منهما أي عون، أخته حاولت إقناعه بمجاراة محمد وتزويج البنت، "فالبنت ما لها إلا الزواج" على حد كلامها!

"ماذا سنفعل؟".. قالتها الزوجة بقلق.

"لا أدري".. أجاب وأطرق مفكرا، كان يشعر بقيود عدة تخنقه وتشل تفكيره.

"أخوك جبار، وأنت كثير الغياب عن البيت، أخاف أن يستغل غيابك ويأخذ البنت إلى بيته، أو يتصرف أي تصرف طائش يجبرنا على الموافقة".

طنت كلمتها في رأسه فعجز عن النوم، تقلب في فراشه دون جدوى، وحين انتصف الليل كان قد اتخذ قراره الذي بدا جنونيًا "خديجة.. جهزي نفسك وبناتك، سنغادر الليلة إلى تعز." هزها برفق.

لم تجادله أو تستفسر، بل قامت من فورها تجهز نفسها وبناتها للسفر وكأنها كانت تنتظر منه أن يرحمها من جحيم تسلط أخيه بمصير بناتها ووضعها في مواجهته في حال سفره، وبطبيعة الحال لن تكون قادرة على إيقافه عند حده.

سار الجميع على رؤوس أصابعهم وكأنهم لا يريدون أن يوقظوا النائمين، ودَّعت فاطمة قريتها التي لم تتعرف عليها بعد، فحينها لم تتجاوز عامها الثالث، بالكاد كانت تبقى بصحبة أخواتها بجانب البيت.

بعد ليلة مضنيه من السفر سيرًا على الأقدام، ثم رفقة سائق شاحنة رأف لهذه العائلة التي تسير في الظلام وصلوا المدينة، لم يتردد "قائد" طويلًا، فقد كان يعلم إلى أين عليه أن يذهب، طرق باب صديقه فلم

يكن من المنطقي أن يأخذ عائلته لتبيت في المحل حيث يبيت هو كل ليلة حين يكون في المدينة.

ورغم صغر بيته إلا أن صديقه لم يتوان عن إيوائه وعائلتة دون حتى أن يطالب بشرح، في اليوم التالي شرحا المشكلة لصاحب المحل الذي بادر هو الآخر بالمساعدة بمجرد معرفته للسبب الذي أجبر قائد على ترك القرية.

"وهل من المنطقي تزويج الفتاة في هذا العمر؟" سأله صديقه مستغربًا.

"في قريتي يحدث هذا غالبًا، لكني لا أرضاه لابنتي فهي لا تزال طفلة من المعيب بحقي ألا أكفل لها الرعاية حتى تكبر".

"وإن عرف أخوك مكانك!"

"ليعرف، لا يهمني شأنه، ليس له شيء عندي، بل على العكس، حقي عنده، وإن أراد أن يتحمله فبيني وبينه رب لا يضيع عنده حق، أما بناتي فسأدفاع عنهن أمامه وأمام غيره، أحضرتهن معي لأني لا أستطيع البقاء في القرية طوال الوقت، فلا عمل لي هناك، وإن سافرت لا آمن شره عليهن، هن الآن معي وفي حمايتي."

"لا تقلق، سنكون معك أيضًا".

كادت الدموع تخنق "قائدًا"، فبين إخوته لم يجد من يقف إلى جانبه ويعده على الأقل أن يقف بوجه محمد إن حاول التصرف بطيش أثناء غيابه، بينما الغرباء لم يتركوه وحيدًا. بحثوا له عن بيت صغير يأويه

وبنياته، زاد صاحب المحل من أجره ليكون قادرًا على تحمل تكاليف المعيشة في المدينة، سلمته زوجته ذهبها بالكامل ليشتري للبيت ما يلزم من ضروريات الأثاث، فخروجهم بتلك الطريقة كان يعني أن يتركوا خلفهم كل شيء فيما عدا بعض ثيابهم.

❋❋❋

٣

في حي صغير من أحياء تعز بدأ "قائد" حياة جديدة، رغم بساطتها لكن شعورًا طاغ بالراحة سيطر عليه وهو ينام كل ليلة قريبًا من عائلته الصغيرة، لا يطير النوم من عينيه كلما راوده هاجس إصابة إحداهن بسوء.

كان الوضع صعبًا في البداية، خاصة أن الحياة في المدينة أكثر كلفة، ورغم أن البيت لم يكن حاله أفضل من البيت الذي استأجره في القرية لكن الإيجار كان مضاعفًا، واستقطع أكثر من نصف الراتب، ليتبقى له أقل من النصف لتوفير الأكل والمشرب، عدا عن إلحاق البنات بالمدرسة، ومع ذلك لم يشتكِ أو تشتكي زوجته، كلاهما كان يعلم أن قرار الانتقال إلى المدينة لن يكون ثمنه سهلًا، لكن لا بد من التضحية لضمان سلامة البنات وعدم الرضوخ لرغبة محمد الذي لن يهدأ حتى يحقق ما يريد.

في أيام كثيرة كانت الأسرة تكتفي بوجبة واحدة طوال اليوم، وتمر أيام لا يتوفر لديهم غير عيش خبز جاف يبللونه بالماء.

إلحاق البنات بالمدارس كان جهاد من نوع آخر، فبين توفير زي مدرسي لهن ودفاتر وحقائب مدرسية غاص قائد في دوامة صغيرة من الديون، ولقضائها كان لا بد من التقشف أكثر، حتى كاد التقشف يفر من البيت هربًا لكن هو الآخر لم يجد مكانًا آخر يأوي إليه ففضَّل البقاء عندهم.

بطبيعة الحال لم يسكت محمد بمجرد علمه بما حدث، لكن لم يكن بيده شيء ليفعله سوى الموت بغيظه "فأبو البنات" هزمه وفعل ما

يحلو له. زاره في المحل لكن أمام عناد "قائد" وإصراره على قراره برفض تزويج ابنته عاد لقريته وهو يهدد ويتوعد، لكن ماذا عساه أن يفعل أكثر! منَّى نفسه أن قائدًا سيعود للقرية عاجلًا أو آجلًا فلن يكون بمقدوره تدبر أمره في المدينة لوحده، وحينها سيكون له معه شأن.

حين ضاقت به الحال، ولم يعد الراتب يكفي قائدًا وأسرته حتى إلى منتصف الشهر، بحث عن عمل آخر، ولحسن حظه وجد عملًا إضافيًا كحارس ليلي في المدرسة ذاتها التي تدرس فيها بناته، زاد دخله بعض الشيء وأصبح قادر على التكفل بمصاريف البيت دون الحاجة لطلب العون من صاحب العمل أو أحد أصدقائه. قضى ديونه وتحسنت معيشته بوقوف زوجته معه وقرب بناته منه، شعر بالقوة والتماسك ليواصل كفاحه المستمر لأجلهن.

وسط العمل المتواصل لتأمين لقمة العيش لم ينتبه قائد أن السنوات قد مرت إلا عندما طرق أول شاب بابه لخطبة ابنته سلوى التي كانت قد أنهت حينها دراستها الثانوية. لم تعد الطفلة التي حملها على كتفه وهو يغادر قريته لأجلها حين تعبت من السير، لم تعد تلك التي أرادها شقيقه محمد لابنه ياسين. في البداية كاد أن يرفض، أراد لها أن تواصل تعليمها الجامعي، لكن ضيق ذات اليد وخوفه عليها جعله يفكر بالأمر، فإن ضغط على نفسه ليكملن التعليم في المدرسة، لم يكن بمقدوره أن يضغط على نفسه أكثر، خاصة أن الجلوس الطويل خلف ماكينة الخياطة قد أرهقه وأدخله في دوامة طويلة من ألم الظهر المتواصل. لم يعد متأكدًا أنه سيصمد طويلًا، وأنه سيبقى متماسكًا حتى يكملن

تعليمهن الجامعي، لم يكن أمامه ما يدعو للرفض أو التمسك بالعناد، فأفضل ما يمكن التفكير به وهو بهذا السن أن يكون لبناته أزواج يوفرون لهن الحماية والستر في حال أقعده المرض أو داهمه الموت، بعد تفكير وتأن وافق على الشاب بعد مشاورة زوجته وابنته.

كان زفافًا بسيطًا، دعا إليه جميع أهله، حتى محمد الذي أصر على موقفه العدائي منه، ورفض الحضور بينما حضر سيف ونذير. شاركا أخاهما فرحته وتمنيا لابنته حياة طيبة. أوصلوا سلوى إلى بيت زوجها الذي لا يقل تواضعًا عن بيت والدها. عند عتبة الباب حيث يقف زوجها، امتزجت دموعها بدموع أبيها، شعر حينها أن جزءًا من روحه قد انتزعت منه انتزاعًا. انتزع يديها التي تشبثتا به كطفلة، وأودعها قبلة بين عينيها، وانسحب مبتعدًا يداري دموعه وتنهيداته الحارة. عاد إلى البيت ليجد زوجته تبكي وسط بناتها، لم يلمها أو ينهرها، فمشاعره التي عايشها وهو يسلم ابنته لزوجها كانت أشد على قلبه، تركها تجفف دموعها وغادر إلى غرفته الصغيرة في المدرسة، رغم أن لديه إجازة لكن لم يجد غيرها ملاذًا من دموع وشجون زوجته التي بدا واضحًا أنها لن تنتهي حتى الصباح.

لم ينتصف اليوم التالي حتى كانت سلوى بينهم وبجانبها زوجها في زيارة سريعة، لتحل ابتسامة الرضا محل دموع البارحة في عيون الجميع.

❋❋❋

٤

خلال الستة الأعوام اللاحقة تبعتها أختاها سوسن وسامية. شعر أن زواج سلوى قد خفف أحد الأثقال التي ينسحق تحتها كاهله. رؤيتها وهي في كنف رجل يعتني بها ويقاسمها حياته بحلوها ومرها، جعله يتمنى أن يرى الأخريات كذلك قبل موته، لذا لم يعارض من تقدموا لهن، فما أن يتوسم بالمتقدم حسن خلقه وسيرته الطيبة بين جيرانه وأهله فيوافق على الفور. لم يضع يومًا المعيار المادي شرطًا لقبول زوجٍ لابنته، ليس لأنه كان فقيرًا، فهو لم يكن يشعر بأنه كذلك يومًا، ولكن كان طوال الوقت يبحث عن رجل يحل محله، وهذا ما وجده في أزواج بناته الثلاث. كانوا رجالًا يُعتمد عليهم رغم ظروف معيشتهم الصعبة وشح ما يكسبونه، لم يكن راغبًا بإعادة أي منهن إلى القرية التي خرج منها مرغمًا ومتخفيًا، طوال السنوات السابقة لم يكف أخوه محمد عن إعادة المحاولة لإعادة البنات إلى بلدهن وبشكل خاص بيته كزوجات لأبنائه، ليس حبًا فيهن، لكن كان يحركه العناد والشعور بأن أخاه لا يملك العزوة التي تمنعه منه ومن تحكمه، وكلما علم بأن أخاه على وشك تزويج واحدة من بناته اشتعل غيظًا، وحاول قدر ما يستطيع أن يحول بين إتمام الزواج بحجة أن البنت ما لها إلا ابن عمها، هو أولى بها من الغريب، بغض النظر إن كانت راغبة بهذا الارتباط أم لا، فالبنت برأيه ليس لها حق الرفض أو حتى أخذ رأيها بالأمر.

"وهل عندنا بنات يؤخذ رأيهن؟!"

"نعم بناتي أنا." يجيبه قائد بعناد.

الصفعة التي يتلقاها دائمًا من "قائد" كلما حاول حشر أنفه في مصيره ومصير بناته، يتلقى الرد بصمت ويغادر بخفي حنين.

كثيرًا ما كان يفكر في إصرار أخيه على التحكم بمصير بناته، وكأن القرية قد عدمت الفتيات فيها ولا يوجد غير بنات قائد ليزوج أولاده منهن، لكنه كان يدرك يقينًا أن الأمر لا علاقة له بهذا، إنما شعوره أن "قائدًا" ضعيفًا مقارنة به، وإحساسه بالعزوة والقوة ما يمكنه من الحصول على ما يريد.. ومع ذلك لم يعطه فرصة لتذوق ذلك الشعور يومًا متحملًا العقبات كافة.

وبتزويج البنات الثلاث خف الحمل عن قائد كثيرًا، ليس معنويًا فقط وليس لهاجس تركهن دون عائل أو حماية رجل إذا ما اختاره القدر، لكن أيضًا من الناحية المادية، فلم يتبق في البيت سواه وزوجته خديجة وصغرى بناته "فاطمة"، لذا ترك العمل في محل الخياطة واكتفى بعمله كحارس ليلي في المدرسة التي لا تبعد سوى عشر دقائق عن بيته، يقضي جل النهار في البيت أو يخرج ليقضي بعض الوقت في المحل الذي عمل فيه لسنوات طويلة، يراقب حركة الماكينة من بعيد ويدعو الله ألا يضطر للجلوس خلفها مجددًا.

لم تتوقف زيارة بناته له، بصحبة أزواجهن وأولادهن. قد تتباعد أوقات الزيارة، لكن إن انشغلت إحداهن قامت الأخريات بالواجب فيملأن يومه بحضورهن وضجيج صغارهن الذين تعلق بهم وصاروا جزءًا لا يتجزء من نهاره، أوقات يتشبث بهم ليبقوا رفقته في المساء فيعتصر قلب زوجته الألم وتتمنى لو أنها أنجبت له ولدًا؛ ليظل أولاده في حضن جدهم لا يفارقونه أبدًا.

٥

في إحدى ليالي الصيف الحارة، تفاجأ قائد بفاطمة وهي تطرق باب غرفته التي تقع على مدخل المدرسة، خرج إليها مهرولًا فلا شيء يأتي بها إليه في هذه الساعة إلا أمرا جللا.

"أمي مريضة!"

ليس بالأمر الجديد، حمى خفيفة وقد أعطاها دواء لتخفيفها قبل أن يغادر على أن يأخذها في الصباح إلى المستشفى.

"إنها ترتعش وتهذي" قالتها وهي ترتعد، لم يجد بدًا من العودة معها لإسعاف زوجته دون انتظار الصباح، حملها إلى المستشفى، وهي لا تكاد تشعر بنفسها وبمن حولها، لم تمهلها الحمى طويلًا وسلمت روحها إلى بارئها خلال أيام.

"حمى الضنك"، قُدِّر للبعض أن ينجو منها لكن زوجته لم تفعل، لم تترك له فرصة أن يداويها قبل أن تتدهور حالتها، لم تشعره بمرضها إلا وقد أصبحت في مرحلة متقدمة وغير قادرة على التحمل أكثر. طوال عمرها كانت كذلك، تصبر وتتحمل ولا تشتكي، دائمًا يشكر الله أن رزقه بزوجة مثلها، لكن لم يدرِ حينها هل يشكر فيها أنها تحاملت على المرض أو يغضب عليها، وكيف يغضب عليها وقد ودعته نهائيًا! ماتت لتتركه ينهار مرة واحدة، وكأن السنوات الطويلة التي قضاها وهو يجرى وراء الرزق ويعصر روحه وجسده لم تكن لتؤثر عليه، لكن رحيلها فعل.

شعر أنه لم يعد قادرًا على التحمل أكثر، لم تكن صدمة البنات بأقل من صدمته، خاصة فاطمة، لكن رؤية والدهن بتلك الحالة أجبرتهن على التماسك أكثر كي لا يفقدنه هو الآخر. أحطن والدهن برعاية خاصة في محاولة منهن للإبقاء عليه على قيد الحياة. تحامل على نفسه أخيرًا وحاول تجاوز الأزمة، لم يبقه على قيد الحياة سوى فاطمة وشعوره بالمسؤولية تجاهها، خوفه عليها من البقاء وحيدة أو أن تتحول الوصاية عليها لأخيه محمد جعله يتحامل مجبرًا ويتغلب على حزنه. دعا الله كثيرًا أن يزرقها بالزوج الصالح قبل أن يواتيه أجله، ليموت وهو مطمئن عليها. أقصى ما كان يحلم به أن تتزوج فاطمة كأخواتها وتنتقل مسؤوليتها لرجل آخر قادر على حمايتها والاعتناء بها.

لكن بتقدم شاب من أسرة ميسورة الحال للزواج من فاطمة بدأ الهم ينزاح عن كاهله، لم يقضَّ مضجعه سوى أن قبوله بهذا الزواج يعني انتقالها إلى العاصمة صنعاء، هذا يبعدها عنه كثيرًا ويضاعف المسافة بينهما. تردد كثيرًا قبل الموافقة، فكل بناته تزوجن في تعز، والبعيدة عنه يتطلب الأمر نصف ساعة للوصول إليها، ولا يكاد يمر أسبوع دون أن تزوره إحداهن أو يقوم هو بزيارة لمن تتأخر عنه.

لكن قبوله بتزويج فاطمة في مدينة بعيدة وهو بوضعه الصحي والمادي الحالي يعني ألا يكون قادرًا على الاطمئنان عليها متى أراد، لا يراها أو تراه لشهور طويلة، لا يدري كيف سيكون حالها مع زوجها وأهله، وهل ستكون بخير فعلًا أم لا! أمام كل تلك المخاوف كاد أن يرفض، ويبقيها بجانبه حتى يتقدم غيره.

لكن تدخُّل بناته منعه من الرفض، فالعريس وضعه المادي ميسور وسيكفل لأختهن حياة كريمة، وخوفه هو الآخر أن يداهمه الموت في أية لحظة جعله مستعدًا للمغامرة، خاصة وأنها ستكون وحيدة إن تركها، ليس لها أخ أو عم حنون تتكئ عليه، وستكون مجبرة على قبول وضع لا تحبه أو تطيقه.

لذا وافق بعد تردد وأقنعها بمساعدة أخواتها. كانت المرة الوحيدة التي يتدخل فيها بقرار إحدى بناته في أمر زواجها لكنه فعل مع فاطمة التي لم يرد لها يومًا أن تتركه وترحل، شعر أن حبه لها كان المحرك الأول لقراره لإبعادها عنه، شعر أنها لكي تحيا يجب عليها أن تبتعد، وإن كان ابتعادها سيقصم ما تبقى له من قوة، وستمحو السبب الأخير الذي كان يبقيه على قيد الحياة. أمام إلحاحه ومخاوفه وافقت فاطمة أخيرًا ونقل موافقتها لأهل العريس ليتم كل شيء سريعًا كما أرادوا.

❋❋❋

٦

كان زفاف فاطمة هو الزفاف الوحيد الذي لم ترتسم خلاله نظرات الارتياح والسعادة على عيني قائد. غياب خديجة من جهة، وهواجسه لابتعاد ابنته عنه كل تلك المسافة، شعر أن الأمر مجرد قرار وجد نفسه مجبرًا على اتخاذه. فاطمة نفسها لا تبدو عليها السعادة أو الرضا كما هو الحال مع أخواتها خلال زفافهن. غادرت البيت بعد يوم حافل. الوحيدة التي لم يوصلها لبيت زوجها الذي أتى بنفسه ليأخذها ويرافقها في رحلتها الطويلة إلى صنعاء. وبخروجها انقضَّت الجدران فجأة على صدره تطحنه طحنًا وتشعره بالوحدة والوحشة. شعر أنه يجلس في بيت غريب عنه لم تطأه قدماه من قبل، ارتمى على الأرض يذرف الدموع ويبكي كما لم يبك من قبل. اشتد الوهن في جسده أكثر، مسح دموعه وتحامل على نفسه يجر قدميه في الحي النائم ليصل إلى غرفة الحراسة في المدرسة، نام على فرشه فهنا لا يطارده طيف زوجته ولا ضحكات بناته اللاتي تفرقن من حوله. تمنى لو كان باستطاعته أن يبقيهن كلهن حوله، لكن ماذا بيده ليقدمه لهن أكثر مما قدمه، أغمض عينيه وقلبه معلق بالسيارة التي تحمل ابنته الصغيرة بعيدًا عنه لا يدري متى سيقدر له أن يراها مجددًا.

في الصباح طرق الحارس المناوب على قائد، يوقضه ليذهب إلى بيته ويتولى هو الحراسة أثناء النهار، وعندما فشلت كل محاولاته كسر الباب ليجده جثة هامدة. مات وهو واضع يده تحت خده وقد علقت بها بعض دموعه التي بدا أنه ذرفها طوال الليل وطيف ابتسامة رضا عالقة على شفتيه المتيبستين.

بعد رحلة استمرت أكثر من ست ساعات بالسيارة وصلت فاطمة أخيرًا لمدينتها الجديدة. كان الوقت متأخرًا والتعب بالكاد يسمح لها أن تفتح عينيها وتشاهد المدينة النائمة، كانت المرة الوحيدة التي تسافر خارج تعز بعد أن دخلتها وهي ابنة ثلاثة أعوام، وكانت أيضًا المرة الوحيدة التي تجد نفسها بعيدة عن عائلتها الصغيرة، وعن والدها بالذات. حاولت مرارًا كبح دموعها لكنها فشلت، تهاجمها نوبة بكاء، تهدأ قليلا ثم لا تلبث أن تذرف دموعها مجددًا.

ساعة إضافية وكانت تجلس في غرفتها الخاصة وبجانبها من يفترض به أن يكون زوجها- حسن النجار. في تلك اللحظة فقط فاقت من الشعور بالحزن والرغبة بالبكاء التي ظلت تخيم عليها طوال الطريق. أدركت أن الأمر صار جديًا وأنها صارت زوجة لرجل لا تعرفه ولم يتسن لها أن تراه إلا مرة واحدة قبل الزفاف. فقد تم كل شيء بسرعة ولم يترك لها أحدًا فرصة التفكير في حياتها القادمة بجدية وروية أو حتى تخيل الأمر كيف سيكون، لكن تعبها منعها من التفكير طويلا أو حتى محاولة التفكير.

نامت وهي تفكر بوالدها، كيف سيتحمل العيش وحيدًا، من سيطبخ له، ومن سيدلك له ظهره ليخفف عنه ألمه المتواصل، والأهم من سيخفف عنه الوحدة بعد رحيل الجميع عنه، حتى هي! غافلتها الدموع فمسحتها سريعًا قبل أن يراها زواجها فقد رآها تبكي في السيارة بما فيه الكفاية.

لم ينتصف نهار اليوم التالي حتى أبلغوها بوفاة والدها، لم تصدق! كيف لوالدها أن يموت ويتركها!

صوت أختها المخنوق عبر الهاتف يقول إن والدها قد رحل. انهارت تمامًا تحت شعورها بالحزن والذنب، كيف طاوعها قلبها مجاراته وتركه وحيدًا، تخيلت مشاهد عدة للحظاته الأخيرة، وكل مشهد كان يشق قلبها نصفين ويفقدها اتزانها.

ترجت من يفترض بهم أن يكونوا أهلها الجدد أن يسمحوا لها بالعودة إلى تعز وإلى والدها. شعرت أن عودتها إليه ستعيد له الحياة، سترتمي في حضنه ولن تبتعد عنه أبدًا. تحت تأثير دموعها وبكائها المتواصل حُققت رغبتها لتعود إلى تعز لتلقي النظرة الأخيرة على والدها قبل دفنه، فهذا حقها رغم كل شيء.

وهكذا غادرت فاطمة تعز لأول مرة في حياتها وهي ترتدي الثوب الأبيض، ثم لم تلبث أن عادت لها وهي ترتدي السواد ويرفل قلبها في خضم بحر من الأحزان والدموع الحارقة. تعلقت عينيها بالمشاهد نفسها التي لمحتها من حين إلى آخر في الليلة السابقة. كل شي كان يسير حولها وكأنه شريط سينمائي نسي صاحبه أن يطفئه رغم عدم وجود متفرجين. أسندت رأسها على زجاج النافذة المغلق وتابعت نظراتها الشاردة كل شيء تمر السيارة بجانبه لكن بالكاد تلمحه أو تشعر به: فتاة ريفية تقف وسط حقل غمرته مياه أمطار الليلة السابقة، أطفال يقفون على الرصيف ينتظرون اللحظة المناسبة لقطع الشارع السريع، راع يلاحق غنمه قبل أن تدوسها سيارة ما. يختفي الريف بحياته الهادئة وتدخل السيارة على المدينة

بخصبها وضجيجها ووجوه كثيرة وغريبة لا تلبث أن تغادرها ويتجلى الريف مرة أخرى، تتلاحق المشاهد لكن لا شيء يجذب فاطمة للاهتمام به أكثر، فطوال الوقت لم تكف عن تخيل لحظة لقائها بوالدها. هل سيكون حقًا مسجى وجسده خامد تمامًا أم ستراه مجددًا وترتمي في حضنه، يقبلها بين عينيها كما فعل حين زفها لزوجها!

بوصول السيارة إلى حدود تعز تنبهت حواسها، وأصبحت أكثر تحفزًا واستعدادًا للقاء. حين رأته على فراشه تسمرت الدموع في مقلتيها واختلطت شهقاتها مع شهقات أخواتها وأطفالهن، ارتمت في حضنه تطالبه أن يرد عليها، لكنه لم يفعل، تشبثت به كثيرًا ولم تسمح لأحد أن يأخذه بعيدًا عنها، وحين طال الأمر وبدا أنها لا تنوى تركه، تدخل زوجها أخيرًا وجذبها إليه ليحملوا جثمان والدها بعيدًا، وسط صرخاتها ومطالبتها لهم ألا يفعلوا، لكنهم فعلوا ودفنوه بجانب زوجته في مقبرة تعز كما كانت وصيته.

انتهى الدفن والعزاء، وخلال الأيام التي قضتها فاطمة في تعز التزمت الصمت طوال الوقت، تكتفي بتفحص الوجوه الباكية حولها التي كانت حولها قبل أيام مفعمة بالفرح.

وعندما لم يعد هناك شيء لتفعله عادت إلى بيتها ومدينتها الجديدة بعد أن أوصتها أختها الكبرى أن تحاول تناسي حزنها ولا تجعله يطغى على حياتها، فزوجها لا ذنب له فيما حدث. فعلا لا ذنب له، ولا لها.

كانت تعيش بجانب والدها وتشعر بالراحة والرضا لإحساسها أنها تعتني به. انتزعها من حضنه بعيدًا عنه، لينتزعه القدر من حياتها نهائيًا في

الوقت الذي يفترض بها أنها تعيش أجمل أيام عمرها. لا ذنب لأحد في كل ما حدث، لكنه القدر ولا تملك إلا التسليم. كان موت والدها في هذا الوقت تحديدًا أقسى ما يمكن أن تواجهه في حياتها، لكنه أكسبها شيئًا من الهدوء والحكمة، وكأنها خلال أيام كبرت أعوام كثيرة، فقد أصبحت أكثر قدرة على التحمل والصبر، فكل ما أصبحت تعايشه مستقبلًا لم يكن يعني شيئًا مقارنة بفقدانها والدها، أو على الأقل هكذا كانت تشعر.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

١

خلال الأسابيع اللاحقة لزواجها، فاقت فاطمة من صدمتها لفراق والدها لتتلقى صدمة من نوع آخر. من الناحية المعيشية والاجتماعية كانت حياتها الجديدة لا تُقارن مع حياتها السابقة؛ فبيت حماها الذي يعمل في التجارة كبير وواسع، ورغم أنها شاركت العائلة بالسكن في البيت نفسه إلا أنها حظيت بنوع من الاستقلالية والخصوصية، رغم أن حزنها على فراق والدها منعها من الشعور بالفارق الكبير بين بيتهم الشعبي المتاهلك وبيت حماها الكبير، لكن لم يكن حزنها ليمنعها من الشعور بالفارق الكبير بين زوجها حسن ووالدها الذي رحل دون رجعة. بدأ الأمر حين طلب منها زوجها أن تعد له الفطور ذات صباح. كانت أول مرة تدخل فيها المطبخ منذ زواجها، حاولت أن تعد له فطورًا كأفضل ما تستطيعه، لكن ما أن وضع أول لقمة في فمه حتى قذف بالصحن في وجهها وهو يصيح ويشتم بأنها لا تجيد صنع شيء. أنقذتها حماتها من غضبه الذي صعقها فخرج مغضبًا. لم تبك ساعتها بل تسمرت في مكانها، غير مستوعبة ما حدث للتو، كانت المرة الأولى في حياتها التي يرفع أحدهم صوته عليها ويشتمها بتلك الطريقة. ابتلعت الإهانة وتحاملت على نفسها تحاول لملمة ما بعثره على الأرض وإن عجزت عن لملمة كرامتها التي بعثرها على طول روحها وعرضها.

"لا عليك بابنتي، حسن طيب القلب لكنه يفقد أعصابه سريعًا". واستها حماتها...

هزت رأسها وانسحبت تداري دموعها بعيدًا، دخلت المطبخ، لتضع الأطباق جانبًا ومعها تسكب دموعها: "لماذا رحلت عني يا أبي!" قالتها وهي ترتمي على الأرض غير منتبهة لمحسن أخو حسن الذي يصغره بأعوام. كان واقفًا أمام الثلاجة حين دخلت، فانسحب خارجًا قبل أن تنتبه لوجوده، سكبت ما استطاعت من دموع ثم غادرت لتكمل التنظيف.

كان حسن بالفعل سريع الغضب كما قالت حماتها لكن لم يكن طيب القلب أبدًا، خاصة معها. لم يكن يترك فرصة دون أن يعايرها بأنها لا تصلح لشيء وأنه رفعها إلى مستوى لم تحلم يومًا بأن تعيشه.

"سامحك الله يا أبي!" طالما رددتها. تزوجت أخواتها وكل منهن تعيش في بيت متواضع ودخلها بالكاد يكفي إلى نهاية الشهر، لكن أيًا من أزواجهن لم يعايرهن أو يسيء معاملتهن. ما به الفقر إن كانت النفس غنية، وما يعيب الفقير الغني بأخلاقه، لم تشعر بالفقر يومًا، فوالدها أطعمهن عزة النفس مع كل لقمة كسبها بعرق جبينه.

لم يكن أمامها من مفر سوى الصبر على "حسن" وطباعه التي لا تطاق والتي تعدت الشتمية في وقت لاحق للتعدي بالضرب. فكرت بترك البيت وطلب الطلاق، لكن إلى أين تذهب ولمن تلجأ! "عمها محمد!" فهذا ما يريده ومعه لن تكون أسعد مما هي عليه الآن، لا بد وأن ينتقم لنفسه وللإهانة التي تلقاها من والدها على مدى أعوام طويلة.

هل تذهب لتعيش عند واحدة من أخواتها! لكن كل منهن بالكاد تكفي نفسها وأولادها وكيف لها أن تضيف لهن عبئًا إضافيًا.

"هل ضربك!" سألها محسن ذات مرة وهو يشير للاحمرار حول عينيها. لم ينتبه أحدا سواه للأمر، هزت رأسها نفيًا وهي تغالب دموعها وانسحبت إلى غرفتها.

كم تمنت أن تقول نعم، أن تجد من ينتصر لها ويخلصها من العذاب الذي تعيشه ليل نهار، لكن ماذا بمقدوره أن يفعل وهو ليس حتى أخًا لها.

"أراد حسن الزواج من زميلته في الجامعة لكن رغبته قوبلت برفض من والدي ووالدتي، هم من اختاروك له بعد أن مدحتك صديقة والدتي في تعز، لذا يعبر عن رفضه لقرارهم بطرقه الخاصة. تحمليه، لا بد أن يتقبل الأمر الواقع يومًا ما وينسى حبه القديم". وضح لها محسن يومًا بعد أن شعر بسوء حالتها النفسية.

"وماذا ذنبي أنا؟!"

"لا ذنب لك ولا له، لكن هكذا سارت الأمور". هز كتفيه بأسى قبل أن يغادر.

إذًا هكذا سارت الأمور. أتوا بها من تعز لتحل محل واحدة أخرى رفضوا أن يزوجوها ابنهم، سايرهم لكنه انتقم منها هي. صبَّرت نفسها وحاولت التحمل قدر ما تستطيع. مضى العام الأول من زواجها دون تحسن يُذكر في معاملة زوجها لها. حينًا يتدخل حمواها لإنقاذها من يد حسن وحينًا آخر يحاولان الإصلاح بينهما. فكرت أكثر من مرة أن تترك البيت لكن تغير رأيها في آخر لحظة فلا مكان آخر تذهب إليه. حتى عندما حملت لم يتغير شيء رغم أن حماتها فرحت كثيرًا بالحمل ووعدتها

أن الطفل لا بد وأن يغير من تصرفات حسن تجاهها؛ فشعوره بالأبوة سيقرب المسافة بينهما. بالنسبة له، تلقى الخبر بكل برود وكأنه لا يعنيه. بلعت غصتها كما تعودت أن تفعل دائمًا، لكن ما لم يخطر ببالها أن الحمل سيغير من الأمر معها هي. كان الجنين يكبر يومًا بعد يوم ومعه يكبر في داخلها الشعور بالأمان. لأول مرة تشعر بأنها لن تكون وحيدة، وسيكون معها شخص يكون لها كل أهلها. حركته في أحشائها تحرك الحياة الراكدة في قلبها فيعيد لها بعضًا من بهجتها ويعينها على تحمل طباع زوجها القاسية، لذا انتظرته بشوق ولهفة، وكلما أغضبها زوجها تتحسس بطنها وتخاطب جنينها حينًا تشكو له وحينًا تصبِّره وتصبِّر نفسها.

❊❊❊

٢

خلال الشهر السابع من حمل فاطمة، كعادته اختلق حسن مشكلة من لا شيء ليفرغ عليها جام غضبه، وكعادتها استقبلت غضبه بصمت وصبر، لكنه تمادى وبدأ بضربها. خشيت على جنينها فتعالت صرخات الاستغاثة بحمويها وقد أصبحا ملاذها منه. أفلتت من يده وجرت مبتعدة. كان محسن أمامها وأول الواصلين إثر استغاثتها، فاحتمت به وهي تمسك ببطنها بعد أن بدأ الألم يسيطر عليها، أزاحها بعيدًا وتوجه إلى أخيه يعاتبه على ضرب زوجته الحامل.

"ألا تخاف على طفلك في بطنها؟"

"لا شأن لك بالأمر، هو ابني وليس ابنك"!

لم يتمالك محسن نفسه من الغضب فصفع أخيه حسن على وجهه صفعة شعرت بصداها يصر في أذنيها. كانت الصفعة هي الشرارة الأولى لعراك بينهما. ابتعدت قدر ما تستطيع واستندت على أقرب جدار لتنزلق على الأرض فلم يعد باستطاعتها احتمال الألم أكثر. بدا واضحًا أنها ستفقد جنينها. أغضمت عينيها واستسلمت للنزيف ودموع الألم والخوف قبل أن تفقد وعيها وتغيب عما حولها دون أن تنتظر ما يسفر عليه العراك بين زوجها وأخاه المتعاطف معها.

بنية محسن القوية مكنته من التغلب على أخيه الذي أغاظه طويلًا بسوء معاملته لزوجته اليتيمة ثم استهتاره بطفله. لم يشعر بنفسه وهو ينهال عليه ضربًا وركلًا، شعر أنه ينتقم لفاطمة مما قاسته طويلًا. لم يخلصه

من يديه سوى والده الذي أمسك به أخيرًا لينهض حسن وهو يمسح الدم من أنفه ويصرخ من شدة الغضب: "سأقتلك"!

قالها وخرج مسرعًا من البيت غير مبالٍ بوالدته التي حاولت اللحاق به.

انتبه الجميع لفاطمة المنزوية بعيدًا، فاقدة للوعي تنزف، وحملوها إلى أقرب مستشفى.

"الجنين في خطر لكننا سنحاول إنقاذه قدر ما نستطيع." أخبرهم الطبيب قبل أن يمضي. في الوقت الذي كان الجميع ينتظر فيه خبر استقرار حالة جنين فاطمة أو فقدانه وصل لهم خبر أفقدهم اتزانهم وبشكل خاص محسن.

لسوء الحظ وبمجرد خروج حسن من البيت، قاد سيارته بسرعة، خرجت عن مسارها واصطدمت بشاحنة نقل كانت تسير في الاتجاه المعاكس. لم يصمد طويلًا، يومان في العناية المركزة ورحل عن الدنيا مخلفًا وراءه جنينا يجاهد ليبقى على قيد الحياة، وأخًا أفقده الشعور بالذنب الرغبة في الكلام، فلازم غرفته لا يخرج منها ولا يترك المجال لأحد أن يدخل إليه.

أما والداه، فأغرقهما الحزن عليه، فعليهما يقع وزر كل ما حدث. الوقوف ضد قراره ومحاولة فرض اختيارهما عليه هو ما أوصله إلى حتفه.

لم يكتب لحسن النجاة لكنها كُتبت لابنه، غادرت فاطمة المستشفى بعد أسابيع قضتها في العناية المركزة وحتى في البيت كان عليها أن تلازم الفراش بقية أسابيع حملها الثلاث.

ما لم تكن تتوقعه أن يزورها عمها محمد! قدَّم لها التعازي المقتضبة قبل أن يختلي بحماها الذي عاد يحمل لها خبر قرار عمها نيته أخذها إلى بيته، فلم يعد ما يربطها ببيت النجار بعد موت زوجها، وهو الآن الوصي عليها. تشبثت بحماها وحماتها تتوسلهم ألا يسمحا له أن يأخذها "سأعمل خادمة لديكم لكن لا تسمحا له أن يأخذني، أرجوكم." أمام دموعها ورغبتهما بالبقاء حاول حماها معه جاهدًا، متذرعًا بالطفل وحالتها الصحية. انتهت المفاوضات معه أن يتركها عندهم حتى تلد ويأخذها بعد أن يترك لهم ولدهم.

"هل ستسمح له أن يأخذني بعيدا عنكم وعن ابني؟" سألت حماها باكية.

"إلى أن تلدي يفرجها الله من حيث لا نحتسب". رد والحزن مخيم على محياه.

شهور إضافية علا بعدها صراخ الصغير في البيت. أسمته فاطمة "خالد". مسح الصغير ببراءته نظرة الحزن من عيون آل النجار. أول حفيد في العائلة، أول طفل تحمله الأكف بعد حمل جنازة حسن. استقبلوه بفرحة ممزوجة بدموع الحزن على فراق من لم يمهله الموت ليعانق صغيره، كان وجود الصغير في البيت بمثابة نسيم بارد أزاح سحبًا كئيبة سيطرت على أروقته وأركانه لعدة شهور.

محسن الذي مر على حبسه لنفسه في غرفته شهورًا، لا يرى فيها النور، ولا يخاطب أحدًا، وبالكاد يأكل ما يبقيه على قيد الحياة، يقضي ليله ونهاره ممسكًا بالقرآن أو على سجادته يبكي بحرقه، أدخلوا له الصغير الذي حمله بيدين مرتعشتين. غسل وجه الصغير بدموعه وكاد يخنقه وهو يضمه إلى صدره: "حسن!" همس وهو يقبل يدي الطفل الصغيرتين وكأنه يريد أن يقنع نفسه بأن حسن عاد من جديد.

في اليوم التالي خرج من غرفته وطلب من والدته أن يرى خالدًا مجددًا. ومن بعدها وبعد أن كانت مغادرته لغرفته لا تتعدى الخروج ليتوضأ للصلاة، لا تكاد تمر ساعات إلا وهو بجانب خالد يلاعبه ويلاطفه، وقد يحمله ويعود به إلى غرفته يمضي معه بعض الوقت، حتى يضج الصغير بالبكاء، تعدل مزاجه وبدأ يخرج من الطوق الذي أحاط به نفسه. تفاجأت أمه ذات يوم وقد ارتدى ملابسه استعدادًا للخروج وهو الذي لم يغادر البيت منذ وفاة حسن. غاب ساعة تقريبًا وعاد وهو يحمل ثيابًا جديدة لخالد، وضعها بجانبه ومضى دون أن يرفع بصره نحو فاطمة. شعرت بما يعانيه وتمنت أن تناديه وتخبره بأن ما حدث شيء قد كتبه الله، ولا علاقة له بالأمر. لم تحدثه واكتفت بمراقبته وهو يعتني بطفلها وكأنه يعوضه عن حنان أبيه. رغم كل شيء افتقدت حسن وتمنت لو كان موجودًا يعتني بطفله ويحمله بين يديه. ترحمت عليه وسامحته ودعت الله ألا يحرمها من ابنها، فما عاد يبقيها على قيد الحياة سواه، وما عادت الحياة تعني لها شيئًا بدونه، لكن كيف السبيل إلى ذلك وعمها لها بالمرصاد يحاول جاهدًا استرداد كرامته التي مرغها والدها بالتراب، ويتمنى أن يشعر بالوصاية عليها أو واحدة من أخواتها ليتحكم بمصائرهن؟!

"سيزوجك لأحد أبنائه" قالت أختها الكبيرة بقلق.

"لكنهم تزوجوا كلهم"!

"ستكوني زوجة ثانية لأحدهم"!

"أنت تمزحين!"!

"هذا كلام عمتي وليس كلامي."

كان كلام أختها صادمًا شعرت برغبة لحمل طفلها والهرب به بعيدًا جدًا حيث لا يصل لها أحدًا، ضمته إلى صدرها وراحت في نوبة بكاء طويلة.

"ما بها؟" سألت حماتها التي دخلت للتو.

"لا تريد أن تذهب مع عمي، سيجبرها على الزواج من أحد أولاده. بينه وبين أبي ثأر ويتمنى أن ينتقم لنفسه".

طأطأت والدة حسن رأسها والتزمت الصمت، فهي نفسها لا تدري كيف تتصرف حيال الأمر، ليس بيدها أو يد زوجها شيء ليقدمانه لفاطمة، فهي والدة ابنهم، لكنه عمها.

حين عادت لغرفتها ناقشت وضع فاطمة مع زوجها.

"ليس بيدنا شيء لنقدمه لها، هو عمها وولي أمرها، لكن لن أسمح له أن يأخذ حفيدي ليتربى بعيدًا عني".

"سيزوجها لأحد أولاده"!

"وماذا بيدي لأقدمه لها؟!" أجاب بأسى.

كان محسن واقفًا بالجوار يستمع لحديث والديه، انسل لغرفته بهدوء وأقفل على نفسه الغرفة. عاد الشعور بالذنب يوخز قلبه، فهو السبب في كل ما حدث، لولا فقدان اتزانه وتعديه على أخيه بتلك الطريقة لما فقد حياته، وها هي فاطمة مجبرة على التخلي عن ابنها والتعرض لتجربة زواج أخرى، قد لا تكون أفضل من سابقتها.

لم يطل مكوث محسن في غرفته التي ظل يذرعها طوال يومين كاملين كأسد جريح يبحث عن متنفس ليخفف عن جراحه. أخيرا خرج ليخبر والديه بقرار هو نفسه لا يعلم متى وكيف اتخذه ولكنه يعلم على الأقل لماذا: "إن تزوجت أنا فاطمة هل سيكون ذلك كفيلًا ببقاء ابن حسن معنا وعدم حرمانها منه؟!"

لم يدر والداه بما يجيبانه، فكلامه كان غير منطقي بالنسبة لهما، ولأنه بدا واضحًا أنه اتخذه في لحظة انفعال وشعور بالذنب والمسؤولية، لذا آثرا تجاهل كلامه، لكن محسن كان جادًا في كلامه أكثر مما بدا عليه لحظة النطق به، وأمام إصراره وإلحاحه على إتمام خطوة الزواج من فاطمة، لم يجدا بدًا من الموافقة.

"لكن هل ستوافق فاطمة؟!" سألت والدته بعد أن بدأت هي الأخرى تقتنع، فرغم كل شيء يبدو هذا هو الحل الوحيد والأسلم حتى لا تُجر فاطمة إلى معاناة أخرى في كنف عم لا تحبه، وفي كل الأحوال ستتزوج فاطمة عاجلًا أم آجلًا، وهي وابنها مع محسن أكثر أمانًا من أن تكون مع آخر لا يعرفون عنه شيئًا.

لم يكن إقناع فاطمة بالأمر السهل، لكن أمام مخاوفها من العودة إلى كنف عمها أجبرها على التفكير جديا بالأمر. أطلعت أخواتها بالأمر فرحبن جميعهن بهذا الزواج وشعرن أنه الخلاص من عودتها إلى بيت عمها، لذا قبلت أخيرًا. ودون أن ينتظروا زيارة عمها لأخذها تم عقد قرانها على محسن بعد أن وكلت خالها، الذي تولى بنفسه إخبار عمها بما تم اتخاذه بشأن فاطمة. لم يتلق الأخير الخبر بقلب رحب، لكنه عاد إلى قريته مقهورا وخالي الوفاض، فأبوا البنات يغلبه حيًا وميتًا.

❊❊❊

٣

راضخة لقضاء الله وقدره بدأت فاطمة حياتها الجديدة مع محسن الذي استقل بها وبابن أخيه ببيت منفصل عن بيت أبيه.

بدا الأمر مربكًا ومحرجًا له بادئ الأمر، ففاطمة كانت زوجة أخيه، وبمثابة أخت له، وها هي اليوم زوجة له وبطلب منه.

"أعتذر"... قالها محسن بمجرد أن دخلت فاطمة شقتهما الجديدة، ليكمل: "أقسم ما كنت لأفكر بك يومًا ما كزوجة، لكن كان علي أن أتصرف لأحميك وأحمي ابن أخي. اتخذت القرار ولم يكن تفكيري سوى بخالد، لا أريده أن يتربى بعيدًا عن أهله ولا عن والدته، لمت نفسي كثيرًا على تهوري وعدم التفكير بمشاعرك، لكن التراجع لم يكن ممكنًا وتركك تذهبين حيث لا تريدين بعيدًا عن ابنك. لم أكن لأسمح به، خاصة أني السبب في كل ما حدث".

شكرته فاطمة بكلمات مخنوقة، لم يدر محسن هل كانت صادقة بشكرها، أم كان تهكمًا. لم يكن ليلمها عليه، لم يناقشها ولم يفتح الموضوع أمامها مرة أخرى، فما حدث قد حدث وعليهما أن يتقبلا حياتهما الجديدة.

كان تقبل الوضع الجديد صعبًا على كليهما، لكن في آخر المطاف استسلما للأمر الواقع، فأي نفور أو رفض لن يغير من الحقيقة الماثلة أمامهما أنهما صارا زوجين، ووجود خالد قرَّب المسافات بينهما كثيرًا، وأشعرهما أنهما أبواه. اللحظات التي تقاسما العناية به خلال أوقات النهار

أو الليل كانت تمحو كثيرًا من الحواجز التي تكونت بينهما. حين كانا في بيت النجار، لأوقات كثيرة كانت فاطمة تناديه "حسن" ومع الوقت تعلمت إضافة "الميم" ليكتمل اسم شريكها الجديد. احترامها له وعنايته الزائدة بها وبالصغير أجبراها على مبادلته بالمثل، اندمجت معه ومع حياته وشخصيته، خاصة أنه كان على النقيض من حسن، حنونًا عليها ومتقد الحماس والطموح، مرح، دائم الحركة، لا يكاد جسده وعقله يهمدان، تفكيره وطموحه يسبقان عمره بسنوات، ولعل هذا ما سبَّب له بعض الخلافات مع والده في العمل، فلم تكن رؤيته التي تتسم بالمغامرة والحماس لتنسجم مع رؤية العجوز الذي يرى أن السير في طريق ثابت ومعروف هو أسلم الطرق في عالم التجارة.

دخلت عليه ذات ليلة وهو واجم كئيب لا رغبة له بنطق كلمة واحدة، جلستْ إلى جانبه تخفف عنه ما لا تعلم سببه، وبعد إلحاح منها فضفض لها، أخبرها أنه دخل بمشادة مع والده كاد أن يتلقى صفعة من كفه لولا تدخل أخوه الأصغر منه، لا يستطيع أن يتقبل الطريقة التي يدير بها والده المحل، خوفه من الخسارة والفشل يجعلانه يفوِّت الكثير من الفرص ليكبر وتكبر تجارته، يكتفي بالقليل ويترك الكثير يتسرب من بين أنامله ليكون لقمة سهلة لمن هم دونه. حاول إقناعه لكن كل محاولاته باءت بالفشل، فرأس والده يابسة، ولا جدوى من تغيير رأيه.

"تدري يا محسن، الثمر الذي يظل عالقًا فوق الشجرة يكتب له نهايتان، إما أن يؤكل أو يُنسى حتى يفسد وتنتهي دورة حياته، لكن تلك التي تقع على الأرض تكون لها حظوظ أكبر لتُدفن في التربة وتخرج منها براعم صغيرة تكوِّن شجرة في يوم ما تنتج الكثير من الثمر، صحيح قد

تموت، لكن تبقى لديها فرص لتحفر لها في باطن الأرض طريقًا ترمي جذورها عميقًا وتعانق فروعها وأغصانها السماء". قالت له.

- وما علاقة ما قلته لك الآن بالشجرة والثمر!

- إن أردتْ قد تكون ثمرة فقط، أو تغامر وتصبح شجرة كبيرة.

ابتسمت له وذهبت لتسكت الصغير خالد، بينما بقي كلامها يدور في عقله وتفكيره، نعم لماذا لا يغامر ويكون شجرة؟ الأمر يحتاج إلى مغامرة، وسيقبل التحدي.

لم ينتظر طويلًا وخاطب أباه برغبته بالبدء بمشروع جديد خاص به، لم يكن إقناع أبيه سهلًا خاصة أنه سيفقد ذراعه اليمين ومساعده الأول، لكن بمزيد من الإلحاح ودعم من والدته ومن فاطمة أيضًا وافق الوالد أخيرًا على إقراضه مبلغًا من المال.

لم ينتظر كثيرًا، ففكرة المشروع كانت في ذهنه منذ أن فاتح أباه، بدأ بمحل لبيع الملابس الجاهزة وبنفس الوقت راح يكوِّن علاقات مع تجار محليين من جهة، وموردين ومصانع في الصين من جهة أخرى، فعمل وسيطًا بين الطرفين مقابل عمولة مُرضية.

كان أصعب ما واجهه هي البداية، حيث المغامرة والخوف من الفشل، والخوف من الخذلان سواء من الموردين أو العملاء، فكل شيء كان يجري دون أية ضمانات كافية، ومع ذلك قهر خوفه وغامر، لم تسعه الدنيا من السعادة وهو يقبض أول عمولة، لم يكن بالمبلغ الكبير لكنه كان

حافزًا بالنسبة له ليستمر، فنجاح خطوته الأولى كان يعني إما أن يواصل أو يتوقف تمامًا، لكن كل شيء سار على ما يرام.

وبدعم والده الذي أسعده أن يرى ابنه يحفر طريقه بيديه، وبمساندة زوجته بدأ محسن يحصد ثمار شجرته الصغيرة، توسعتْ دائرة علاقاته، وفتح أبوابًا جديدة مع موردين جدد، وأصبح له عملاء لا يستغنون عن خدماته، حتى محله الصغير وسع نشاطه وأصبح يبيع فيه بالتجزئة والجملة بعد أن استأجر مخزنين لصيقة بالمحل يخزن فيهما بضاعته التي تصل خصيصًا له.

مرت الشهور سريعًا وهو منغمس تمامًا في محاولة إنجاح مشروعه الجديد، ومع ذلك لم ينس زوجته وابنه خالد، فمنذ أن قرر العناية بابن أخيه، اعتبره ابنه هو، وزاد تعلقه به منذ اللحظة التي ناداه فيها بـ"بابا" خرجت من فم الصغير عفوية عذبة لدرجة أنه تسمر لثوانٍ لم يدر ما يفعل. كررها خالد ليغيب في حضن محسن الذي ضمه إليه من شدة تأثره بهذه الكلمة: "منذ اليوم خالد ابني، ولن يكون غير ذلك." قالها وهو يمطره بالقبل، لم يكن محسن فقط من تعامل مع خالد كأنه ابنه، بل كل أفراد العائلة لم يروا خالدًا سوى ابن لمحسن، لا ابن أخيه، عاملوه من هذا المنطلق، ربما لأن محسنًا أجاد تقمص شخصية الوالد منذ ولادة خالد، أو لأن الجميع لم يرد للطفل أن يشعر باليتم في لحظة ما. أيًا كان السبب لم يحاول أو يفكر هو أو أحد بأن يخبر خالد أن والده قد توفي منذ زمن وأن من يعيش معه عمه وزوج أمه.

❋❋❋

٤

لكن كما لا يدوم حزن، لا تستمر سعادة أو رخاء، فبعد أن بدأ مشروع محسن الصغير يستقر ويجني ثمارًا يانعة تنسيه تعبه وكفاحه الذي دام لعامين، وأثناء جلوسه صباح أحد الأيام في مكتبه الذي يحتل مساحة صغيرة في محله منكبًا على الكمبيوتر يبحث في الإنترنت عن مصنع يزوده بالأثاث المنزلي والمكتبي ليغطي طلبية أحد الزبائن الجدد، وبينما انشغل عماله بتلبية طلبات زبائن المحل، وآخرون في المخزن يرتبون بضاعة جديدة وصلت للتو من الصين.. فزع الجميع على صرخة عامل آتية من المخزن، هرعوا إليه ليجدوه ملقًا على الأرض والنار تشتعل في الكراتين القريبة من محول الكهرباء. أخرجوا العامل وانشغل الجميع بإنقاذ ما يمكن من البضاعة، ومعهم محسن الذي شمر على ساعديه وعمل بكل ما فيه من طاقه، كان الجميع يتفانون لإنقاذ البضاعة، وهو يعمل لإنقاذ حياته وحلمه وشجرته الصغيرة من أن تحترق قبل أن يشتد عودها، لسعت النيران وجهه وكفيه وتسللت رائحة شعره المحترق إلى أنفه لكن لم يبالي. لم يشعر سوى بتلك النار التي تأتي على مجهوده وتعبه دون رحمة، ما دون ذلك فقد الإحساس به، عمل كالمجنون، تارة يحمل شيئًا وتارة يصيح، وأخرى يدعو باللطف.

"حاذر!" أتاه التنبيه وهو يسحب إحدى الكراتين، وقبل أن يستوعب مم يحاذر انهار عليه جبل من الكراتين لتظلم الدنيا بعدها ويفقد الإحساس بما حوله.

عندما استعاد وعيه كان طريح أحد الأسرة في المستشفى.. "المحل!" قالها بصوتٍ واهٍ وهو يمسك باليد القريبة منه- يد فاطمة- ربتت على صدره وهي تغالب دموعًا عجزت عن حبسها أكثر.

"كل شيء على ما يرام، لا تقلق".. لم يكن صوت فاطمة، بل صوت والده الذي احتواه بنظرات حانية لا تخلو من العتاب، وكأنه يقول له "هذا ما كنت أخاف منه".

أنقذه عماله قبل أن تلتهمه النار التي أتت على كل شيء تقريبًا، قبل أن تصل المطافئ لتنقذ المحلات والمخازن المجاورة، ليخرج هو من الحادث صفر اليدين وبحروق ما بين المتوسطة والخفيفة توزعت على يديه ووجهه وجسده، احترق شعره، خُلعت يده اليمنى، كما تعرض لضربة قوية على رأسه إثر سقوط الكراتين.

"لن أنجو!".. ظل يرددها حتى بعد أن ترك المستشفى وعاد إلى البيت، لم يكن ما حدث له بالأمر الهين، خاصة أنه كان قد بدأ يستشعر نجاحه وقدرته على المواصلة، كمن يفتح ذراعيه ليتلقى هدية قيمة فإذا بضربة عنيفة تفقده اتزانه.. دخل في حالة اكتئاب حاد، ويأس من معاودة الوقوف تسرب إلى قلبه. طلب منه والده أن يعود ليعمل معه كما كان في السابق، خاصة أن الوالد بات يتعب كثيرًا وما عاد بمقدوره مزاولة العمل كما كان، ويحتاج لمن يعتمد عليه بالكامل.

لم يرفض عرض أباه، لكن فكرة العودة ونسيان حلمه تقتله، وتوازي الألم الذي يطرق رأسه بمسامير إثر الضربة التي تلقاها والتي

سيعاني من آثارها مدى الحياة، ومع ذلك تقبل فكرة العودة فلا يملك خيارًا آخر.

"لا".. قالتها فاطمة بحزم وأضافت: "نعم خسرت، لكنك لم تفشل، ستشفى من جروحك وتبدأ مشروعك من جديد، وحتمًا ستنجح، التعثر لا يعني الفشل، والسقوط لا يعني النهاية".

كان صوتها حازمًا عابقًا بالحنان، راقبته طويلا وهو يتململ في فراشه، ويداري رغبة تجتاحه من وقت إلى آخر بالبكاء، لم يهن عليها أن ترى نظرات الانكسار واليأس في عينيه التي كانت متقدة بحماس منقطع النظير، تراه يموت كل يوم، ولن يهون عليها أن تشاهد موته أكثر، أن يعود لمحل أبيه يعني أنه فشل، وهي لم تقتنع بعد أنه قد فشل وترفض أن يستسلم بهذه السرعة.

"كيف؟!" خرجت منه لا شعوريًا وخالية من أي تطلع.

بدا عليها أنها كانت تنتظر منه مثل هذا السؤال، لتجيب عليه بشكل عملي لا مجرد كلام تشجيع يتبخر مع أول سؤال.

توجهت على الفور إلى دولابها وأخرجت صندوق مجوهراتها ووضعته بين يديه."

"خذ كل ما أملك وتصرف به كيفما تشاء"!

لم يقل شيئًا، بل أوشك أن يعيد لها أشياءها فلا طاقة لديه لخسارة أخرى، ولتعويض آخر قد لا يقدر عليه. لم تترك له الفرصة ليرفض أو يتردد، أو حتى يجادل، لم تتركه حتى اقتنع ببداية جديدة، ومحاولة أخرى،

وإن كان اقتناعًا مشوب ببعض التخوف وعدم الرغبة على الإقدام على مغامرة جديدة.

كانت مبادرة فاطمة كمن ألقى حجرًا صغيرًا في بركة ماء راكد، من يراها من بعيد يظن أنها خالية من أية مخلوقات بحرية، حركة الحجر أحدثت حركة طفيفة على سطح الماء قبل أن تغوص للقاع، لتخرج الأسماك على أثرها وتحدث ضجة أكبر وهي تتهافت على الحجر ظنًا منها أنه طعامها. لم تكن الأسماك ميتة، كانت فقط في حالة ركود أو سكون مصطنع أو لعلها لا تريد أن تهدر طاقتها المتبقية قبل أن تجد ما يغذي تلك الطاقة بما يكفي.. كذلك كانت حالة الركود واليأس التي بدت على محسن، بقدر ما كانت تبدو عميقة، لكنها في الواقع كانت سطحية لم تتعد ملامح وجهه أو حتى الغشاء الخارجي لقلبه.

معرفة فاطمة العميقة به جعلها تدرك هذا الأمر، فما أن ألقت بالحجر حتى استعاد نشاطه من جديد، وتحركت تلك الروح التي لا تحب القيود أو الحدود لما تطمح وتريد..

بإصرارها نفض محسن عنه رداء الكآبة الذي لازمته شهورًا، تعافت حروقه، وتعافت كتفه، ومع أن الضربة التي تعرض لها رأسه لم تنته تمامًا بآثارها الجانبية التي ستلازمه طويلا والتي ظلت تؤرقه لكنه تخطاها أيضًا، بالأحرى تغافل عنها وتناساها ولو لبعض الوقت، معطيًا جهده وتفكيره وتركيزه بالكامل لخطوة العودة إلى الطريق. كان يدرك أن ذلك لن يكون سهلا خاصة مع الخوف الذي يتسلل له أحيانًا من الفشل مرة

أخرى، لكنه أيضًا لم يكن مستحيلا خاصة بوجود فاطمة التي لم تترك له المجال ليبقى طويلا حبيس خوفه وقلقه.

❋❋❋

٥

مع قرار محسن خوض غمار التجربة الجديدة، أصبح أكثر حذرًا، تتسم أفعاله وردوده بالتأني، ساعدته خبرته السابقة ليتلافى بعض الأخطاء التي وقع فيها في السابق، وبتوفيق من الله تعإلى وبمزيد من الصبر والحنكة المعروف بها تمكن من تجاوز أزمته السابقة بعد بضعة سنوات، ومن التقدم خطوات أخذت تتسع مع الوقت وإن لم تخل من الثبات والثقة.

"لن ندرك ما لدينا من قدرات وإمكانيات حتى نقرر أن نقهر الخوف ونخوض التجربة مجددًا".. قاعدة تعلمها في تجربته للخروج من عباءة أبيه.. "كنتِ على حق" قالها لزوجته وهو يشعر بنشوة النجاح، لم يكن ممتنًا لنفسه التي لم تخذله بقدر ما كان ممتنًا لفاطمة التي لولا وقوفها بجانبه لانسحب منذ وقت مبكر.

ولحسن حظه عرض عليه أحد أصدقائه أن يدخل بالشراكة معه بجزء من رأس المال، كان عرض صديقه مثل الوتد الإضافي الذي يتيح له أن يرفع سقف أهدافه وطموحاته، بدأت فكرة تأسيس شركته الخاصة تصبح واقعية أكثر، خاصة مع شعوره بالأمان بأنه يقف على قاعدة متينة سيحاول ألا تنهار بسرعة كما في السابق. وبالفعل أسس مع صديقه مكتبًا للاستيراد أخذ يكبر شيئًا فشيئًا. مع الوقت توسع نشاطه وزاد عدد عملائه، وبعد مرور أقل من أربعة أعوام حولا المكتب إلى شركة استيراد وتصدير كان النصيب الأكبر فيها لمحسن، وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها.

تنفس محسن أخيرا طعم النجاح، وانشغل كليا بتطوير وتوسيع عمله بنشاط وهمة عاليتين، ومع تحسن وضعه المادي سارع ببناء بيته الخاص، بيت يضم أسرته الصغيرة، كان البيت كبيرًا بما فيه الكفاية ليكفيهم ويستوعب تضاعف العدد بقدوم المزيد من الأطفال...

"أريد خمسة أطفال".. قالها محسن لفاطمة ممازحًا وهو يريها البيت وغرفه الواسعة، أثناء التشطيبات، ابتسمت له وتمنت من قلبها أن تحقق أمنيته، وأن يصبح لخالد إخوة وأخوات تملاء ضحكاتهم البيت، انتهى تجهيز البيت في وقت قياسي وانتقلت العائلة الصغيرة إليه، وهناك وجدت فاطمة الكثير لتقوم به، فمع باحة أمامية وخلفية توازي مساحة البناء بحاجة إلى بث الحياة فيها، كان عليها أن تشمر عن ساعديها وتبدأ بزراعة الحديقة، ووضع لمساتها الخاصة فيها، أو بالأحرى تحقيق أمنية طالما أرادت أن تكون حقيقة، أن يكون لها حديقة خاصة بها، أن تزرع فيها ما تشاء، وبشكل خاص شجرة البرتقال التي بكت عليها كثيرا في طفولتها. فعندما كانت في المدرسة وتعيش مع عائلتها في بيتهم الصغير، لحسن الحظ كان للبيت باحة خلفية صغيرة، بضعة أمتار، لكنها كانت عالمًا كبيرًا بالنسبة لها، تعودت قضاء الكثير من الوقت فيها والاعتناء بها وزراعتها بما يمكن زراعته. كانت تلقي فيها بذور الطماطم والفلفل الحار، لتدخل على أمها بعد أسابيع من العناية بطماطم من شجرتها الخاصة. في إحدى المرات تمنت أن تزرع شجرة برتقال. أخبرتها أمها أن زراعة البرتقال مستحيلة في تلك المساحة لكنها فعلت، احتفظت ببذور برتقالة أكلتها وزرعتها في حديقتها، وبعد أيام من الانتظار بدأت شجرة برتقال صغيرة تتنفس الحياة، ولحسن الحظ قُدر للشجرة أن تنمو وتكبر. ظلت كل يوم

صباحا تسقيها وفي المساء تجلس إلى جانبها تراقب أغصانها الغضة وهي تكبر يومًا بعد يوم. كانت الشجرة قد بدأت تكبر ويشتد عودها حين عادت من المدرسة نهار أحد الأيام لتجد أنها قد نُزعت من جذورها ورميت بجانب باب البيت. بكت كثيرًا يومها، وغضبت من والدها ووالدتها أن انتزعوا الحياة من الشجرة التي كانت قد بدأت تتعلق بها وتنتظر بفارغ الصبر قطف أول ثمارها. أخبرها والدها أن صاحب البيت أتى بزيارة تفقدية لبيته وانتزع الشجرة بحجة أنها سترمي بجذورها في جدار البيت وستضر بأساس البيت غير المتين أساسًا. لم تقتنع لكن لم يكن أمامها إلا الرضوخ، وظلت حزينة لأيام واحتفظت بالشجرة الميتة في البيت وكأنها صديق عزيز مات وتعجز عن مفارقته. لم تزرع بعدها الحديقة أبدًا، لكنها تمنت في أعماقها أن تحصل يومًا على حديقة واسعة تزرع فيها شجرة برتقال دون أن تؤثر على أساس البيت.

في البيت الذي بناه لها محسن، شعرت بطيف صديقتها القديمة يستعيد عافيته، الشجرة التي لم يراد لها أن تعيش طويلًا، بدا واضحًا أنها ستجد المساحة الكافية هنا لتنمو وتكبر، لتسعدها صباح كل يوم برائحة البرتقال الذي تحبه.

لم يكن يعنيها كبر البيت واتساعه بقدر ما أسعدتها تلك المساحة الواسعة التي ستقتل في رحابها الكثير من الوقت، وستمارس الهواية التي عاشت في أعماقها لوقت من الزمان، عارضت مقترح محسن بإحضار بستاني وطلبت منه أن يسلم لها مسؤولية حديقتها الكبيرة. اشترت شتلات لأشجار مانجا وجوافة وتوت، وشتلة اعتنت بها بشكل خاص، كانت شجرة برتقال صغيرة، وبدأت تصنع عالمها الخاص.

وفي ظرف شهور فقط من العمل الجاد والمتواصل بدأت المساحة التي تحيط بالبيت تكتسي باللون الأخضر، زهور موزعة هنا وهناك، أشجار مانجو، وجوافة وتوت وشجرة برتقال واحدة تكافح لتكبر وتمتد أغصانها والتي اجتذبت مع الوقت بعض العصافير التي اتخذت من أغصانها أعشاشًا، تُطرب قلب فاطمة بتغريدها وحركتها الدائمة. قد يسقط فرخًا يعجز عن العودة ويعجز والداه عن إعادته فتحمله معها إلى الداخل، تعتني به وتطعمه بمساعدة خالد، ثم تعيده إلى عشه. تعتني بكل ما في الحديقة وببيتها الكبير، لكن بشكل خاص تقضي أوقات فراغها بجانب شجرتها الصغيرة، تستعرض معها ذكريات طفولتها، ترى فيها ظلال أخواتها اللواتي ما عادت تراهن إلا في المناسبات، والديها الذان رحلا وتركاها وحيدة وبشكل خاص والدها الذي طبع على جبينها قبلة حانية قبل أن يودع الحياة.

بوجود شجرتها التي أخذت تكبر شيئًا فشيئًا دون الخوف من اجتثاثها شعرت أن عائلتها تعيش معها في البيت نفسه. تسمع ضحكات أخواتها وهن يلعبن هنا وهناك، وهمهمات والديها وهما يناقشان هموم الحياة بصوت خفيض حتى لا تسمعهما فتياتهما الصغيرات. وعندما كبرت الشجرة أصبحت تستظل تحتها، ويقضي خالد بجانبها أغلب الوقت، شعر بالرابطة التي تربط هذه الشجرة دون غيرها بوالدتها وتوطدت علاقته هو أيضا بها، فكلما ألف نفسه وحيدًا يجلس تحتها يراقب أوراقها ويستحضر الأرواح التي ترسم الابتسامة على شفتي والدته وإن لم يكن يعرف أصحابها إلا من خلال حكايات والدته القليلة عنهم.

في ما عدا ذلك كان اهتمامها منصب بخالد الملازم لها كظلها ومحسن الذي يعود في المساء مثقلًا بهمومه وهموم العمل ليفرغها كلها على صدرها، فتحتضنه زوجًا وابنًا، لا يزاحمه عليه إلا خالد الذي يندس بينهما ضاحكًا، فيحمله محسن لينسى بدوره ما علق في عقله من هموم.

كانت حياتهما هادئة ومتناغمة إلا من بعض المواقف البسيطة- أو التي تبدو كذلك- لكنها تترك أثرًا عميقًا في نفسها أو نفسه. فعندما حان الوقت ليلتحق خالد بالحضانة، تولى محسن هذه المهمة، سألته المعلمة عن اسم الطفل ليرد عليها دون وعي "خالد محسن النجار." سجلت الاسم وعندما قارنته باسمه المدون على شهادة الميلاد، نظرت إليه بريبة "عفوًا، اسمه خالد حسن النجار"!

شرد محسن لبرهة قبل أن يجيب عليها باسمًا بأنه بالفعل ابن أخيه، وأنه المعني بتربيته ورعايته. هزت رأسها بإعجاب وعادت لتدوين الاسم. بعد عودته إلى البيت ظل واجمًا. حاولت فاطمة أن تعرف منه سبب صمته لكنه لم يجب، حمل نفسه وخرج من البيت، ليقوم بزيارة لقبر حسن الذي انقطعت زيارته له منذ زمن ليس بالقصير. مرت لحظات قصيرة جالت في مخيلته، ذكرياته مع حسن، طفولتهما وقربهما من بعضهما البعض، الأسرار التي أودعها كلاهما صدر الآخر، منذ الطفولة وحتى الشباب، قصة حب حسن لزميلته التي تمنى أن تكون زوجته، ووقوف الجميع ضد هذه الرغبة، ثم زواجه من فاطمة التي لم يحبها يوما، وابتعاده عنه وعن الجميع لينعزل في زاوية مظلمة بداخل صدره، ويفرغ غضبه وغيضه على زوجته المسكينة. ثم آخر شجار بينهما قبل وفاته.

غاب حسن تاركًا في قلبه شعورًا بالذنب كاد أن يقضي عليه، لكن لم يلبث خالد أن أزاح الهم عنه قليلا. كان يضمه إليه وكأنه يضم أخاه الراحل إلى صدره، وفي كل مرة يقبله يطلب السماح من طيف حسن الذي لم يغادره لحظة، شيئًا فشيئًا بدأ الطيف يغيب عنه حتى انقطع عن زيارته، لكن بقي خالد بالقرب منه. ما لم يعرفه أحد أن قراره بالزواج من فاطمة لم يكن فقط خوفًا على الصغير من الانفصال عن والدته، بقدر ما كان تعلقًا به. منذ اللحظة التي حمله بين يديه أقنع نفسه أن خالدًا ابنه، ونسي أنه ابن الذي غيبه الموت. "خالد حسن النجار" رددها بمرارة، لعله أراد لروح حسن أن تسمع هذه الجملة ليعتذر له ويخبره أنه رغم كل شيء فهو والد خالد الحقيقي.

رن هاتفه المحمول، كانت فاطمة المتصلة، انسحب بعيدًا عن قبر أخيه وكأنه يخجل من أن يحدثها بالقرب منه، أتاه صوتها المرعوب المصاحب لصوت بكاء خالد، فكاد قلبه أن ينخلع من مكانه. عاد مسرعًا إلى البيت ومنه إلى المستشفى وهو يحمل خالد بين يديه، مجاهدًا لمنع الدماء من التدفق من قدمه التي آذاها وهو يلعب بالحديقة. في الاستقبال طلبت منه الموظفة اسم المريض فأخبرها أنه خالد محسن النجار!

❋❋❋

٦

لم ينغص على محسن وفاطمة بالذات سوى مزاج محسن الذي يسوء من وقت لآخر، خاصة كلما توسع عمله وكبرت تجارته. الأمر برمته يتعلق بالحادث الذي تعرض له في بداية مشواره التجاري. المخاوف التي ظلت تلاحقه وترهق تفكيره من الآثار المترتبة عليه يزيد توتره ويفقد أعصابه.

كانت حروقه وجروحه الأخرى شيئًا عاديًا- بالنسبة له على الأقل- تطلب منه الأمر أسابيع فقط ليتعافى منها ولو جزئيًا. لم يعنِه التشوه البسيط الذي حدث في يديه ووجه، ولا بعدم عودة يده اليمنى لنفس كفاءتها والتي لم تعد قادرة على حمل أشياء ثقيلة، وتتأثر مفاصلها بالجو البارد. حتى حالة الاكتئاب التي أصابته، أعانه الله تعالى على تخطيها وسخَّر له زوجته فاطمة التي أعادته إلى بداية الطريق بتشجيعها ودعمها المادي والمعنوي له. لكن بسقوط الكراتين عليه ارتطم رأس محسن ببلاط المخزن بقوة، قوة الضربة وثقل الكراتين كانت كفيلة بأن تصيبه بنزيف داخلي يدخله في غيبوبة قد تطول. ثمة احتمال أن يصاب بحالة أو حالات من النسيان يكون أكثر خطرًا للإصابة بها بتقدمه بالعمر وتخطيه سن الأربعين.

فقدان ذاكرة جزئي أو نوع من الزهايمر المبكر، قد يكون بسيطًا ولا يؤثر على حياته العائلية والاجتماعية والعلمية، كأن ينسى أين وضع مفاتيحه، أين ركن سيارته، أو أين وضع ملف اشتغل عليه في يوم سابق، وقد يتطور الأمر بأن يطلب منه أحدهم فعل شيء ما وينساه بمجرد مرور

بعض الوقت، وفي أسوأ الأحوال ينسى طريق العودة إلى البيت، أو حتى ينسى اسم ابنه أو اسم زوجته، أو أن لديه زوجة في الأصل، ما رقم حسابه البنكي، أو ينسى أنه عقد اتفاقية معينة مع عميل!

نسيان أمور بسيطة الجميع ينساها في العادة، أو نسيان أخرى أكثر أهمية، عائلته، عمله، ما قام به وما عليه القيام به، ينسى ماض عاشه بتفاصيله ويصيب عقله الشلل ليعود إلى تلك التفاصيل بدقة، ببساطة يكون شخصًا آخر غير الذي هو عليه الآن، وسينسى ذاته أيضًا!

كان مجرد التفكير في هذا الأمر يصيبه بالرعب، يشعر أن اقترابه من الأربعين يعني بداية النهاية بالنسبة له. تخطيه هذا العمر يعني بداية العد التنازلي، ليفقد كل ما اكتسبه وحققه طوال سنوات. لم تتركه فاطمة فريسة للخوف والهواجس. مثلت له صمام الأمان الذي منعه من الانفجار وأشعرته أن تلك الأعراض قد لا تحدث. كان يوافقها أحيانًا فيشغل نفسه حتى النخاع بالعمل، لكن في لحظة عابرة، قد تكون ثانية بين الصحو والنوم، أو شرود بسيط وهو يقود السيارة، تعاوده المخاوف لتحتل الجزء الأكبر من تفكيره، فينسى أين وضع مفاتيح سيارته فيجن جنونه، ويبدأ بالشتم والعصبية غير المبررة. لا يقتنع أن هذا الأمر عادي مهما حاولت فاطمة إقناعه، ويرى أن العد التنازلي قد بدأ ونسيان المفاتيح اليوم قد يعني أنه سينسى طريق العودة إلى البيت غدًا. تعايشت فاطمة مع مخاوفه وعصبيته، ولم يكن أمامها سوى محاولة التهوين عليه وإن كانت تعلم أن لا جدوى مما تقوم به، فتلجأ للدعاء أن يلطف الله به وبها.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

١

بدخول زواجهما العام الرابع، بدأت مشكلة جديدة تقلق فاطمة ومحسن، وإن كان هو بالذات يحاول جاهدًا ألا يبدو مهتمًا بالأمر؟

لم يُقدَّر لهما الإنجاب. تجاهلا الأمر في البداية، لكن سريعًا ساوره الشك في أن يكون العيب منه، فزوجته سبق لها الإنجاب. وتحت وطأة مخاوفه من عجزه عن الإنجاب أجرى التحاليل الطبية وكانت كلها سليمة.

- "لماذا؟!"

طرح السؤال على نفسه وحين لم يجد إجابة مقنعة، فوض أمره لله وحمده أن رزقه خالدًا دون حول منه ولا قوة. كان الأمر مختلفا بالنسبة لفاطمة. كان بمقدور محسن أن يتزوج الفتاة التي يريدها لكنه تزوجها لينقذها وابنها من الشتات.

- "تزوج!"

كررتها على مسامعه أكثر من مرة. لم تستطع أن تتجاهل شعورها بالذنب تجاه محسن الذي كان ارتباطه بها بدافع الشفقة في المقام الأول. حاولت أن تقدم له كل ما تستطيع كنوع من العرفان بالجميل تجاه صنيعه معها، لكن ورغم كل ما قدمته له، عجزت أن تحقق له شعوره بالأبوة.

- "من قال إني ليس لدي أطفال، معي خالد وهذا يكفي".

بهذا كان ينهي الحوار بينهما كلما بدأته لتلزم صمتًا مشوبًا بالارتياح لا يلبث ضميرها أن يؤنبها مجددًا وتعود لفتح الموضوع بإصرار

أكثر، لم تيأس منه فكلما رأتْ أصدقاء محسن يحيط بهم أولادهم وليس لمحسن غير خالد فقط، ونظرة تحسر تلحظها في عينيه تشعر بالأسى لأجله.

- عليك أن تتزوج!
- عدنا لهذا الحديث، ألم نغلق الموضوع هذا منذ زمن طويل؟
- لا لم نغلقه، أنا لا اعتراض لدي، الرزق كثير ولله الحمد والبيت كبير، من حقك أن تكون لك ذرية.
- لدي خالد!
- طبعا لديك خالد فأنت والده الذي رباه لكن لا يكفي، فخالد يريد إخوة، وأنت تحتاج إلى أولاد يسندونك ويقفون بجانبك حين تكبر.

دقت على الوتر الحساس- الكبر والعجز الذي يتربص به في إحدى منعطفات المستقبل والمجهول- جعله كلامها ينظر للأمر من زاوية أخرى ويعيد التفكير في ما يخاف منه، لذا لم يلزمها سوى محاولات أخرى واقتنع أخيرًا، ليوافق على فكرة الزواج.

بدأت الفعل تفكر بمن تصلح زوجة ثانية لمحسن. لم تترك هذا الأمر لحماتها بل تولت هي نفسها المهمة. حتى ذلك الحين وفاطمة لا تفكر بزواج محسن بعقل الزوجة، نحت هذه الصفة جانبًا، وربما لم تترك لعقلها المجال ليبحر طويلًا في ما تعنيه الزوجة الثانية، تفكيرها كله كان منصبًا

بذرية محسن، أن يكون له أولاد من صلبه يعينونه ويقفون بجانبه حين تضعف قوته ويتقدم به العمر.

لم تفكر بخالد الذي سيجد نفسه في لحظة ينتقل من ابن إلى ابن أخ، ومن سيأتي لينافسه على قلب والده، الذي فتح عينيه عليه، ولم تفكر بمحسن نفسه وعلاقته التي ستكون مع زوجته الثانية وإلى أي مدى قد تأخذه منها، وهل سيظل زوجها معها كما كان أم سيتغير وتفقده لتفقد حياتها وأمانها وعالمها الجميل!

كانت كمن يفكر فقط بنتيجة واحدة أو هدف واحد مغيبة عن تفكيرها بقية النتائج. غيبت كل شيء في زاوية مظلمة في عقلها عمدًا حتى لا تتراجع، فأولًا وأخيرًا هي زوجة، والضرة تصيبها في مقتل، لكن لا وقت للتفكير في هذا الأمر الآن.

بعد التداول والتشاور بينهما، وبينها وبين نفسها إن صح الأمر، وقع الاختيار على "فادية"، أخت شريكه أحمد. قابلتها فاطمة مرتين أو ثلاثًا في مناسبات عائلية وأعجبت بها، بجمالها وأخلاقها، وعندما فكرت بزوجة لمحسن لم تجد أفضل منها، لتأمنها على زوجها.

كان غريبًا أن تأتي فاطمة لتخطب فادية لزوجها، لكن لم يكن هناك ما يجعلهم يرفضون؛ فمحسن ليس بالشخص الذي يُقابل بالرفض وهو الذي يعده أحمد أخًا له أكثر منه شريكًا في التجارة. حدث كل شيء كما رتبت له فاطمة. هيأت بنفسها غرفة "ضرتها" كأفضل ما يكون. كانت فكرة أن تعيش الزوجة الثانية في بيت مستقل غير مقبولة بالنسبة لمحسن، لم يكن على استعداد ليتشتت في بيتين منفصلين، كما أنه

عندما بنى بيته بناه كبيرًا بما فيه الكفاية ليسع أسرة كبيرة، لم تعارضه فاطمة، فالبيت بالفعل أكبر من أن يسعها وخالدًا فقط.

حين أصبح الأمر واقعًا ودخل محسن من باب البيت ممسكًا بزوجته الجديدة، في تلك اللحظة فقط تجلت الأمور لفاطمة، الزوجة المحبة، وكأنها أفاقت فجأة من حلم طويل كانت تعيشه ولا تملك القدرة على تغيير مجرياته. أمور تحدث من تلقاء نفسها مع أنها هي نفسها التي تحركها، وكأن شخصًا آخر يسكن داخلها ويتحكم في تصرفاتها دون أن تملك القدرة على تغييرها أو رفضها. فاق قلبها من غيبوبته وأخذ عقلها إجازة قصيرة. أصيب قلبها في مقتل، وكأن سكينًا حادة اخترقت جدار قلبها الرقيق، ومن الفجوة التي تركتها تسرب الندم إلى قلبها، فتتسارعت نبضاته حتى كاد يقفز من مكانه. تمنت لجزء من الثانية لو رجع بها الزمن إلى الوراء، فتلغي الفكرة من أساسها. لن تطرح أية اقتراحات على محسن ولن تصر عليه، سيكتفيان بخالد، بل ستقنعه أن خالدًا ولده هو ولا داعي للمزيد.

لكن لم يحدث شيء من هذا، لم يرجع الزمن إلى الوراء، لم يدخل محسن وحده يرمي مفاتيحه ويجري نحو خالد يحضنه ويطبع قبلة على جبينها كما يفعل كل يوم.. بل اكتفى بالالتفات لها وابتسم وكأنه يقول لها ها أنا أحقق رغبتك. واصل طريقه مع عروسه وأغلق الباب محدثًا ضجة صامتة اهتزت لها أعماقها وأطفأت كل الأنوار في البيت وكادت أن تطبق السقف عليها، وتسحق ركام قلبها الذي تحطم بقسوة وتناثرت أشلاؤه في أعماقها فأدمت الشظايا كل شريان، وكل خلية.

تلفتت حولها تبحث عن مخرج، منفذ يضمن لها بعض الهواء النقي عله يخفف من الألم الذي يتصاعد مع دموعها، لكن لم تجد غير خالد قريب منها، ينظر نحوها بنظرات متسائلة. تأثر بدموع والدته فبدأ يبكي هو الآخر بكاءً صامتًا، احتضنته لتشعر معه ببعض العزاء. "من حقه أن يكون له أطفال من صلبه." كررتها في أعماقها وهي تغادر البيت وتجلس في الحديقة المظلمة مستندة على شجرة البرتقال، تستشعر قرب والدها منها. مرت الليلة طويلة ثقيلة، بين الحين والآخر تتخيل أنها تسمع وقع أقدام محسن تتجه إليها، ترهف السمع ولا شيء سوى صوت الصمت، وحفيف الأشجار التي قررت أن تسامرها إلى إن أطلت أنوار الصباح منهية معاناتها، فنهضت لتبدأ يومها وتعد الفطور للعروسين وكأن عقلها عاد للعمل ليأخذ قلبها إجازته التي ستنتهي بحلول المساء.

❊❊❊

٢

مضت الأيام الأولى من زواج محسن "بفادية" طويلة على قلب فاطمة. شعرت بغربة لا تُطاق في بيتها، لا يخفِّف عنها سوى تلك الساعات التي تقضيها رفقة شجرة ذكرياتها التي أصبحت محملة بثمار يتسلل عطرها المنعش إلى رئتيها فتنقل روحها إلى بيتها الصغير في تعز، تجوب بين غرفه الضيقة وتطأ باحته الصغيرة، وتجوب في أزقة الحي الصغير الذي شهد كثيرًا من مغامراتها التي غالبًا ما كانت تنتهي بعقاب من والدتها أو عتاب من أبيها. لا يعيدها من رحلتها الذهنية إلا أصوات العصافير التي اتخذت من أغصان أشجار المانجو العملاقة أعشاشًا لها. ينقضي النهار وهي على حالتها تلك لتعيش المساء في حالة ترقب وانتظار لا ينتهي. تدرك أنه لن يطرق بابها ومع ذلك ترهف السمع، إن شعرت بخطواته أو ما يخيل لها أنها خطواته، حتى يغلبها النوم أو الدموع.

ومع الوقت تعودت على وجود فادية في البيت، وتأقلمت مع حقيقة أنها أصبحت شريكتها في قلبه وحياته والساعات القليلة التي يقضيها في البيت. بدأت فادية أيامها الأولى بعزلة تامة عن فاطمة، لكن مع الوقت خرجت من عزلتها تشجعها طباع فاطمة اللينة وسعة قلبها لتبدأ السيدتان حياتهما في البيت، في بيت محسن.

لم تمر شهور حتى بدأت آثار الحمل تظهر على فادية، رغم كل شيء سعدت فاطمة بالخبر، ولم يتمالك محسن نفسه من الفرحة، خر ساجدًا وحمد الله كأنه لم يتوقع أن تتحقق هذه اللحظة أبدًا، وسريعًا بدأ يستعد

لمولوده الجديد. خصص له غرفة مستقلة، وفي أقل من شهر كانت مكتملة في انتظار صاحبها. دخلت فاطمة الغرفة لتقف على آخر ما أنجزه محسن فيها، كانت رائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، انسجم طلاؤها الوردي مع لون الدولاب وغطاء السرير، دببة ودمى وسيارات وحتى قطار صغير احتل أرضية الغرفة. وعلى الرغم أن لخالد غرفة مماثلة، لكنها وجدت هذه مميزة بشكل خاص ربما لأنها تنتظر ضيفًا جديدًا، طال انتظاره. تمشت فاطمة في الغرفة قبل أن تجلس على السرير الصغير تمرَّر يدها على الغطاء الناعم، لكن سريعًا ما تلاشت نظرات الإعجاب في عينيها.

"حسن!" تمتمت بها وانسحبت من الغرفة قبل أن تباغتها دموعها، قضت بعض الوقت في غرفتها قبل أن تغادر البيت. توجهت مباشرة إلى حيث ينام حسن منذ سنوات دون أن تزوره إلا مرة أو مرتين، وقفت على قبره، ومسحت الغبار عن اللوحة المكتوب فيها اسمه. اليوم هو قريب منها كما لم يكن من قبل. مر طيفه أمامها أثناء معاينتها غرفة الصغير، رأته واقفًا على الباب يراقب محتويات الغرفة بنظرات إعجاب ممزوجة بعتاب، كان مختلفًا تمامًا عن حسن الذي عاشت معه شهورًا من العذاب والذل. تأمل الغرفة الجديدة بإعجاب ولم يلبث الحزن أن لاح في عينيه قبل أن يختفي، مطأطئ الرأس، لحقته دون إرادة منها، بحثت عنه في الصالة لكنه كان قد اختفى تمامًا فدخلت لغرفتها لكنها لم تطق البقاء فيها وشعرت بأن عليها أن تلحق طيف حسن إلى حيث ينام: "ليته بقي ليرى ابنه." ابنه الذي لا يعرف عنه شيء حتى الآن، ولا تدري متى ستمتلك الجرأة لتبوح له عن مكان أبيه الحقيقي ووضعه. لوهلة شعرت بتأنيب الضمير بإخفاء الحقيقة عن خالد. أسعدها وأسعد محسنًا أن يشعر الصغير بأن له والدًا،

يناديه بـ"بابا" ويرتمي في حضنه، بدلًا من أن يعيش تحت وطأة الشعور باليتم، لكن ما ذنب "حسن" أن لا يعلم ولده عنه شيئًا! رغم كل ما حدث فهو والده، ستسعد روحه بأن يزور طفله قبره، يناجيه بكلماته الطفولية الطاهرة، يخبره أنه يشتاق له ويتمنى لقاءه، يرسل له قبلة ويعده أنه سيزوره في وقت قريب، يصحو ليلًا ويحضن صورة والده تعبيرًا عن اشتياق. " يااااه" تهاوت فاطمة تحت سياط تأنيب الضمير التي عذبت محسن من قبل. سكبت دموعها قبل أن تغادر المقبرة عائدة إلى البيت.

بمجرد دخولها غرفتها، أخرجت صور "حسن" التي احتفظت بها بمظروف في أحد أدراج دولابها، اختارت أفضلها وقررت أن تضعها في غرفة خالد ليعرف والده أكثر، وفي المساء عندما عاد محسن من عمله، جرى نحوه "خالد" يرتمي في حضنه وهو يناديه "بابا، بابا" فتلاشى قرارها فجأة ورأت أن تؤجله إلى حين...

بعد شهور من الانتظار والترقب، بدت لمحسن أنها تسع سنوات. كان قد أقنع نفسه بأنه لن يكون أبًا يومًا، وها هو ما عاد يطيق شهورًا لتحقيق هذه الأمنية.

انقضت الشهور والأيام ووضعت فادية طفلها. حمله محسن بيدين مرتعشتين، قبل أن يضمه إلى صدره ويغسل وجهه الصغير بدموعه. اقترب من فاطمة يريها الطفل: "انظري ما أحلاه يا فاطمة." اهتزت حروف كلماته وهي تغادر شفتيه، ابتسمت له وراقبت سعادته الطاغية وهو يقبل يدي طفله الصغيرتين ويمررها برفق على خده ووجهه، يتحسس نعومتهما ثم يلصقهما على شفتيه ويودعهما قبلة طويلة. أما فاطمة فقد تضاربت

المشاعر في صدرها حينها وعبثت بقلبها، فهي رغم كل ما قدمته لمحسن عجزت أن تهبه هذه اللحظات الفريدة، لم يكن نقصًا فيها، لكنها إرادة المولى.

قضى محسن أيامًا رفقة ابنه الذي أسماه سعيد، لا يتركه حتى يعود إليه، ولا يعيده لوالدته إلا عندما يشبع بكاءً وصراخًا. كانت سعادته به كسعادة مسافر سار آلاف الأميال في وسط الصحراء دون أن يجد أثرًا للحياة، وأخيرًا وقف إزاء واحة خضراء بعد أن دب اليأس في قلبه من العثور عليها، ارتمى في وسطها، وبقدر التعب والعطش كان الشرب الذي لا يمكن الارتواء منه مهما كان الماء غزيرًا وعذبًا. ومع أن محسن حمل خالدًا وليدًا ورباه بنفسه، بل وسهر على رعايته ليالي طويلة، لكن مع ابنه سعيد كان الوضع مختلفًا تمامًا. جرعة مضاعفة من مشاعر الأبوة التي دغدغت قلبه حتى شعر بالخدر لزمن ليس بالقصير.

وسط فرحته الطاغية لم ينتبه محسن أن ثمة عينين صغيرتين لا تتوقفان عن مراقبته، ورصد حركته وردات فعله تجاه المولود الصغير، "خالد" ذو الخمس سنوات، الذي لم يتعود أن يحمل محسن طفلًا سواه، ولا أن يبدي أي اهتمام بأحد غيره، حتى والدته، فكيف الحال بطفل صغير يأخذ جل وقته، ولا يبكي إلا ويهب نحوه بخوف وهلع!

-"ماذا؟ خالد يغار من سعيد!"

قالها محسن باستنكار لفاطمة التي نبهته إلى غيرة خالد فانفجر ضاحكًا. بحث عن خالد وضمه إليه، عضه عضات خفيفة، وهو يواصل

الضحك، قبل أن يحمل سعيدًا ويضعه في حجر خالد يطلب منه أن يقبل أخاه الصغير.

بعدها ومن باب المزاح كان يحب أن يغيظ خالدًا كلما تسنى له الأمر، ما أن يلمحه بالجوار حتى يحمل سعيدًا ويداعبه بصوت مسموع، فإذا ما علت عينا خالد تلك النظرات الطفولية الغاضبة والمعاتبة حتى يمد له يديه ويطلب منه أن يأتي لحضن أبيه، ينهال عليه تقبيلًا وضمًا حتى يختفي عبوس خالد وتحل محله نظرة ضاحكة، بل ويطالب من محسن أن يقرب سعيد منه ليقبله هو أيضًا.

عامان آخران وأنجبت فادية طفلة أخرى أسمياها "رنا".. أصبح لمحسن ثلاثة أطفال، لا يكاد يضع أحدهم حتى يحمل الآخر، بوجودهم شعر أن جهده وتعبه لا يذهب هدرًا، فلأجلهم سيصنع المستحيل.

❋❋❋

٣

مع مرور السنوات وتجاوز الأطفال سن الطفولة، وجدت فاطمة نفسها تحت ضغط من نوع آخر، خالد وحيدها الذي خرجت به من حياة لم ترغب بها يومًا..

لم يعد خالد ذلك الطفل المرح الذي يرتمي في حضنها ويطرب قلبها بضحكاته ومداعبته الشقية بين الحين والآخر، ولا الشقي الذي يغتنم فرصة انشغالها بحديقة منزلها ليقلب لها غرفتها ساحة حرب مع أعدائه الذين لا يراهم أحد سواه، وأحيانًا كثيرة تمتد المعركة لتطال حديقتها.. ومع ذلك كانت حروبه وشقاوته بمثابة الحياة لحياتها التي لا تكاد تجد بعض السلام حتى تفقده مجددًا.

خلال سنوات قليلة أخذ خالد بالتسرب من بين يديها، والانزواء بعيدًا عنها وعن جميع من في البيت، عن والده محسن وإخوته سعيد ورنا، زوجة أبيه فاديه، وعنها هي بشكل خاص. ما أن يعود من المدرسة حتى يلازم غرفته لا يخرج منها إلا نادرًا، وإن فعل وخرج فهو تحت شجرة البرتقال يحدق في كتابه أو يشرد بفكره بعيدا.. وإن صادف وجلس معهم فبالكاد ينطق بكلمة أو يشاركهم الحديث، حاولت معه مرارًا شدَّه ليكون بينهم ووسطهم لكن كلما أمعنت في جذبه زاد ابتعادًا، تتسم تصرفاته بالعناد ثم العنف تجاه كل من يحاول أن يبعده عن دائرته الخاصة أو حتى الولوج داخلها.

روتينه اليومي لا يتغير أو يتبدل، يرمي حقيبته ويتخذ لنفسه مكانًا تحت شجرة ما تحيط به كتبه، أحيانًا يقرأ فيها، وأحيانًا تتسمر عيناه على صفحة بعينها، لا يقلبها رغم مرور الوقت وحلول الظلام فتدرك أن جسده فقط من يقبع تحت الشجرة، بينما روحه بعيدة.

حاولت التحدث مع معلماته فلعل أحد أصدقائه يضايقه أو معلميه، لكن كان الجواب يأتي بأن خالدًا من أكثر الطلاب هدوءًا، ولا يصطنع مشاكلًا مع أحد!

كان كلام المعلمة صادمًا بالنسبة لها؛ خلال سنوات الحضانة ثم السنوات الأولى من المدرسة كان خالد اجتماعيًا، يلعب مع هذا ويمازح ذاك، يعرِّفها على أصدقائه، فينقضي الوقت ولم تكمل بعد التعرف عليهم كلهم!

الآن لم يعد يصادق أحدًا في المدرسة أو حتى الحي! ولماذا تذهب بعيدًا، حتى سعيد الذي كان لا يكف عن المطالبه بحمله واللعب معه، يغيب في غرفته ويحضر كل ألعابه، يضعها أمامه ليلعبا معًا، ورنا التي لا تكاد والدتها تأخذها من بين يديه حتى يتوسلها أن تعيدها إليه، ما عاد يلعب معهما كما في السابق، بل لا يتحمل أن يأخذ أي منهما شيئًا يخصه، ينتزع أشياءه من بين أيديهم ويعود إلى غرفته تاركًا إياهم يبكون ويصرخون، يضعها في دولابه ويقفل عليها. حاولت أن تنهره أكثر من مرة على تصرفاته مع سعيد ورنا، لكن دون فائدة فكلما تحدثت معه زاد عناده.

كان يكبر وتكبر معه عزلته، قد يقترب منه سعيد طالبًا منه ببراءته الطفولية أن يلعب معه أو يساعده بلعبة ما، فينهره ويطلب منه الابتعاد مهددًا إياه إن أقترب منه بأن سيضربه، ليبتعد منه الأخير باكيًا.

- "لماذا لا يحبني خالد!" سألها سعيد ذات يوم!
- "ومن قال إنه لا يحبك، هو فقط يحب الجلوس وحيدًا".

أجابته وهي تعلم أن كلماتها لا تشبع تساؤله، لم يكن سعيد يبحث سوى عن أخيه الأكبر، أول من لعب معه، وأول من شاركه كلماته الأولى. كان متعلقا به بشكل كبير. "آلد" كما نطق اسمه أول مرة واستمر يناديه به لفترة ليست بالقصيرة، يتسلل من غرفته لينام بجانبه، وإن منحه والده شيئًا جرى نحوه ليقاسمه إياه.

حين حصل سعيد وهو ابن الست سنوات على هديته التي طالما طالب بها والده، قفز قلبه من مكانه وهو يحتضن طائرته، حملها وتوجه من فوره للبحث عن خالد، ليعلمه كيف يطيرها ويتحكم بها بالريموت، حاول أبوه مساعدته لكنه رفض فلا يريد أن يعلمه إلا خالد. وبعد بحث طويل وجده جالسًا في الحديقة يقرأ في كتابه كما يفعل دائمًا.

- خالد! انظر ماذا اشترى لي أبي؟
- "العب بها بعيدًا عن هنا!" رد خالد بجفاء.

لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليه، ومع ذلك أصر على أن يحصل على بعض اهتمام خالد:

- علمني كيف أطيرها.
- إن لم تذهب من أمامي الآن سأحطمها!

أمام كلماته التي تحمل نبرة التهديد الجاد ونظراته الغاضبة وجد نفسه مضطرًا للابتعاد بسرعة، يجاهد ألا يبكي أمام أحد. دخل غرفته وهو يجرجر بعده طائرته ومن يومها لم يُرَ يلعب بها أبدًا.

أجبر خالد سعيد على تحاشيه وتجنبه، ومع الوقت بدأت الحواجز تضرب جذورها بينهما حتى من يراهما يمشيان في الشارع نفسه لا يتوقع أنهما يسكنان في بيت واحد، فكل يلازم جهة أخرى. لم يحدث أن خرجا سويًا إلى المدرسة أو عادا سويًا رغم أنهما يرتادان المدرسة نفسها.

أما محسن فكان الأمر مختلفًا بالنسبة له، فلم يكن عنده أدنى استعداد لترك خالد في عزلته وانطوائه وحتى عناده؛ فالمسئولية تثقل كاهله وشبح العجز والمرض لا يكفان عن ملاحقته ويجعلانه يبحث عمن يمكن الاعتماد عليه إذا قال القدر كلمته، ولم يكن يرى سوى خالد بصفته ابنه الأكبر. محسن الذي أثرت عليه سنوات طويلة من العمل الشاق والمتواصل والتوتر الدائم، وأدخلته في دوامة من المشاكل الصحية بين ارتفاع الضغط، والسكر والقولون العصبي وألم المعدة. ومع تزايد هذه الأمراض عليه أخذ خلقه يضيق يومًا بعد يوم وعصبيته تطال كل من في البيت والعمل على حد سواء. أصبح غير قادر على تحمل أخطاء الآخرين وهفواتهم مهما كانت صغيرة، كل هذا جعله شخصًا آخرًا في ظرف أقل من خمسة عشر عامًا من تعرضه للحادث.

توسع تجارته واسمه الذي نحته بخط بارز في السوق يزيد الضغط عليه، فهل سيأتي يومًا يكون فيه لا شيء وهو من صنع اسمه بجهد وصبر وكفاح سنوات؟! سؤال كان يرهقه فيصيح في خالد المتواري خلف باب

غرفته المغلق أو الساهم تحت شجرة البرتقال، حتى أقسم محسن يومًا أن يقلعها، لولا توسل وبكاء فاطمة.

أين سيذهب كل ما بناه، ومن سيواصل المسيرة بعده! "بالطبع خالد"، هذا ما آمن به بل وقرر أن يحدث قريبًا، أن يروض خالدًا ويدربه منذ صغره على أن يحل محله إذا حدث ما يخاف منه. لم يعد يرى خالدًا طفله المدلل أو صغيره الذي لا يريد أن يرهقه بشيء، بل عضده الأيمن الذي سيحمل حملًا ثقيلًا عليه أن يكون مستعدًا في أية لحظة لهذا الحمل. وليحقق هذا الأمر أصبح أكثر صرامة معه "فلن يكون رجلًا ما لم يتم معاملته كرجل منذ وقت مبكر." فهو لا يملك الوقت الكافي، لم يعنه عناد خالد أو رفضه لكل ما يمليه عليه، بل كلما قابله خالد بالعناد فجر في وجهه براكين غضب لا يوقفها إلا فاطمة وأحيانًا تعجز عن التصدي له، لينسحب خالد بعدها إلى غرفته ولا يفتحها إلا حين يزول حنقه هو على محسن.

شعر محسن أنه يحارب في جبهات عدة مسابقًا الزمن ليأمن على نفسه وعائلته قبل حدوث أي شيء: إعداد خالد ليواصل مسيرته العملية التي لم يرد لها أن تنتهي كما انتهت التجربة الأولى، وأمراض هاجمت جسده الذي أنهكه الضغط والعمل المتواصل خلال سنوات قليلة، وعائلة ما عاد يعطيها وقته كما كان يفعل في السابق.

وبدلًا من أن يعود إلى البيت ليحضن أطفاله يدخل مغضبًا ليعاتب هذا ويصيح في ذاك، وبطبيعة الحال يأخذ خالدًا النصيب الأكبر، لأنه يقابل عصبيته بعناد وتحد، ينتظره أن يكبر وينضج ولا يزيد إلا انزلاقًا

في متاهة تمرد لا يستوعبه، فيتضاعف خوفه، ودون شعور منه يزيد من الضغط عليه كلما كبر.

وعلى حين غفلة من الجميع وحين لم يعد أمام خالد سوى عام فقط لينهي دراسته الجامعية، قرر في أعماقه أن تكون السنة الأخيرة له في بيت محسن، حدثت مشادة بينه وبين محسن، من تلك التي تحدث دائما لكن هذه المرة كانت موجة الغضب في عيني خالد أكبر من أن يتمكن من السيطرة عليها أو إخفائها...

"أين خالد؟!" ملأ صياح محسن البيت في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه للنوم ليلة شتاء باردة وعلى الفور نزل خالد من غرفته مسرعًا على إثر شتائم وتوعد محسن ليقف قبالته، ليبتدره محسن "عندما أعطيتك مفتاح سيارتي، كان لغرض أن تذهب بها مشوار وتعود وليس لتكسر مصباحها الخلفي وتتركها دون أن تصلحها أو تنبهني!"

بهت خالد لوهلة، واحمَّر وجهه خجلا وهو يتقبل عتاب محسن الغاضب أمام عيون الجميع، لم يكن خجله من العتاب بقدر ما كان من العيون التي تسمرت عليه. هل عليه أن يهينه أمامهم ليفهمه خطأه، ظل صامتًا فلسانه خانه عن التعبير، أو حتى الدفاع عن نفسه، أدرك حينها خطأه، لكن رغبته بالاعتذار ماتت في أعماقه. أمام هذه الإهانة القاسية، هز كتفيه بلا مبالاة قائلا: "سأصلحها لك".. وهم بالعودة إلى غرفته، لكن الأخير أمسك بكتفه صارخًا" عندما أحدثك رد علي باحترام.. كلما قلت ستكبر وتنضج تزيد طيشًا."

- قلت لك سأصلحها، ليس الأمر بهذه الأهـــميـــــ...

هوت كف محسن على وجهه بقوة لتخرسه قبل أن يكمل جملته. تحسس خده وفي عينيه تقدح نظرات امتزج فيها الألم بالغضب، همَّ بالرد باتخاذ وضعية الهجوم لكنه تراجع خطوات للخلف، ألقى نظرة عدائية أخيرة على محسن قبل أن يعود إلى غرفته ويبدأ بلملمة أغراضه راغبًا بترك البيت دون الانتظار للموعد الذي كان قد حدده لنفسه، إلا أن طرقات والدته العنيفة عل باب غرفته أخرجته على الفور، جاءت تستنجد به ليساعدهم بحمل محسن إلى المستشفى وقد سقط مغشيًا عليه إثر دخوله بغيبوبة سكر!

بعد عودته من المستشفى وتخليه عن قرار المغادرة إذعانًا لتوسلات والدته، فكر طويلًا فيما حدث تلك الليلة. ظلت صفعة محسن وإهانته له أمام الجميع تؤرقه، ويؤرقه أكثر الشعور الذي شعر به، هل فعلًا رغب بالانتقام من الرجل الذي رباه ورد الصفعة بالمثل أم هو شعور عابر لا غير؟!

قبل تلك الليلة كان الأمر محتملًا بالنسبة لخالد، ربما يتذمر أو يتضايق من تأنيب وضغط محسن عليه، لكنه كان يجيد التخفي خلف قناع من الهدوء ولو كان مزيفًا، لكن وبعد أن أهانه ومد يده عليه أمام الجميع ما عاد قادرًا على إخفاء نظرات الغضب الممزوجة بالقهر من عينيه. أحيانًا يبدو لفاطمة أنه على وشك البكاء، وأحيانًا أخرى تظن أنه سيفرغ غضبه في وجه كل من يحاول اعتراض طريقه.

لأول مرة تتمنى أن يخيب حدسها، لكنه لم يفعل، كان أحساسها بولدها صادقًا. لم يطل الأمر حتى انفجر خالد أخيرًا، وأفرغ شحنة

الغضب المكبوتة، لينهار بعدها تمامًا وتدخل حياته وحياتها في نفق مظلم بدا ألا نهاية له.

❋❋❋

الفصل الخامس

١

تناهى إلى سمعها صوت الأذان من الجامع القريب. فتحت فاطمة عينيها غير النائمتين. اعتدلت في جلستها وهي تفرك صدغيها براحة يديها. كوابيس خالد، صراخه، ومناداته طيفًا يلازم نافذته، نحيبه بين يديها كطفل صغير، ثم حبة الدواء التي تنهي كل هذا العذاب. السيناريو نفسه يتكرر في أغلب الليالي لتنهي ليلتها ممددة على فراشها تغمض عينيها دون أثر للنوم، تستجدي الصباح أن يأتي سريعًا.

ذهبت لتصلي الفجر ثم اطمأنت على خالد فوجدته لا يزال نائمًا كما تركته قبل ساعات. شكرتْ الأدوية في سرها فهي رغم كل شيء تكفل له نومًا عميقًا. طبعت على جبينه قبلة حانية، تعلم أنه لن يشعر لكن يحلو لها أن تقبله وهو نائم مستسلم كطفل. كم تتمنى أن يعود صغيرًا، تحضنه وتحمله وتلاعبه فيرد عليها بضحكة ملائكية يخفق لأجلها قلبها بالحياة، لكن الزمن لا يعود وفي حالتها مع خالد لا يتحرك إلى الأمام.

غطته جيدًا وخرجت.

فتحت نوافذ الشقة ليدخلها هواء الصباح النقي، ثم توجهت للمطبخ تشغل نفسها بإعداد الفطور قبل أن يصحو خالد من نومه. الروتين اليومي نفسه منذ أن انتقلت مع خالد للعيش في هذه الشقة الصغيرة التي لا تبعد كثيرًا عن بيت محسن الكبير. البيت الذي عاشت فيه أجمل أيام حياتها، لكنها وبعد سنوات طويلة، وبعد أن شعرت أنها لن تغادره سوى لقبرها، وجدت نفسها مضطرة للرحيل بصحبة خالد بعد ما

ارتكبه في حديقة البيت والذي تسبب بإرواء شجرتها الحبيبة بدماء من تحب!

لم تكن الشقة التي انتقلا للعيش فيها كبيرة، لكنها كانت كافية لتسعهما. مضت ثلاثة أعوام منذ أن تركت بيتها الذي زرعت أشجار حديقته بيدها وتعهدت كل ركن فيه بالعناية والاهتمام. لم يكن هينًا عليها القيام بذلك بعد كل السنوات التي عاشتها بين جنباته، لكن كان لا بد من التضحية لأجل خالد أو لإنقاذ ما تبقى منه. لم يحز في نفسها إلا أن تتخلى عن محسن في محنته بعد كل السنوات التي قضتها معه، لكن كان عليها أن تختار بين البقاء بجانبه أو المغادرة مع وحيدها الذي بات مستحيلًا أن يبقى فيه.

- "أمي أنا خارج هل تأمريني بشي؟" أعادها صوت خالد من رحلة ذكرياتها وهو يطل برأسه من باب المطبخ قبل أن يذهب إلى عمله.
- "انتظر"!

خرجت إليه مسرعة لتناوله سندوتشات الإفطار.

- ألن تكفي عن معاملتي كطفل، بتُ رجلًا يا أمي ولا زلت أذهب للعمل وبيدي فطوري.
- كف عن التذمر، في اليوم الذي تذهب إلى عملك بدون فطورك، تعود دون أن تطعم معدتك لقمة واحدة.

دس السندوتشات في حقيبة يده الصغيرة متصنعًا التذمر، قبَّل يديها وتابع طريقه. يعلم أنها في المطبخ منذ السادسة والنصف تعدَّ له هذه

اللقمة التي أعدتها له، وأمام مجهودها لا يملك إلا أن يرضخ، ثم لماذا يكذب على نفسه، فهو لا يطيق تناول طعام لم تعده بنفسها. خرج وهي تشيعه بدعواتها حتى نزل درج العمارة، وعادت للداخل تكمل مهامها الصباحية القليلة.

واصل خالد طريقه، متجاهلًا سيارته المركونة على مقربة من العمارة، قرر أخذ نزهة صباحية كما يحلو له أن يفعل من وقت إلى آخر، فجو المدينة التي تنفض النوم من أهدابها، وهواء الصباح المنعش يساعده كثيرًا على تفريغ صدره من الشحنات والآهات التي امتلأ بها طوال الليل.

- صباح الخير.

رد على تحية جاره الذي مر من أمامه بصوت حاول قدر الإمكان أن يبدو منشرحًا. توقف لبرهة قبل أن يغير الطريق، ويتخذ طريقًا معاكسًا لطريق العمل. عادة يقوم بهذا التغيير ولا يدري سببًا منطقيًا لتصرفه، أو لعله فعلًا منطقي لكنه لا يحب الاعتراف بمنطقيته.

وقف أخيرًا على بعد خطوات من البيت الذي عاش فيه سنوات طفولته ومراهقته وحتى شبابه، بيته الذي لا يعرف له مأوى سواه، حيث لعب وضحك وبكى وتمرد على كل القوانين التي وضعت فيه، بيت محسن، والده الذي عاش في حجره لسنوات طويلة، أو من يفترض به أن يكون كذلك. سمَّر بصره على بوابة البيت دون أن يحاول اجتياز الشارع الذي يفصله عنه، لا تزال نوافذه مغلقة، وساكنوه نائمون. لم يتغير في البيت شيء منذ غادره، على الأقل الهيكل الظاهري منه، أما روحه فما عاد يشعر بها مهما أطال الوقوف هنا. كل ما يراه أمامه أحجارًا مرصوصة

بعناية فائقة، أما البيت والمنزل والوطن ما عاد له وجود. ومع ذلك لا يشعر برغبة للتوقف عن القدوم إلى هنا، لم يسأل نفسه يومًا لماذا يأتي ولماذا يصر على هذا الطقس الصباحي الذي بات جزءًا لا يتجزء من أغلب أيامه. غالبًا لا تنتابه مشاعر محددة وهو يطيل الوقوف هناك، ولا تساوره أية رغبة لفعل شيء محدد. يتسمر مكانه وكأنه عمود كهرباء أو شجرة سلبت منها الحياة، لا يتحرك منه شيء سوى عينيه اللتان ترمشان ببطء. ينهي وقفته بزفرة عميقة، بعد أن تكون روحه قد سافرت في رحلة قصيرة إلى ماضيه، ليلقي نظرة أخيرة على البناء ثم يمضي مبتعدًا. تحنو منه التفاتة أخيرة قبل أن يتجاوز الشارع، لا يدري هل هو يلتفت للبيت أم لساكنيه الذين تخفيهم الجدران الإسمنتية؟! "محسن" والده الذي تحول في لحظة غفلة منه إلى عمه وزوج أمه لا أكثر ولا أقل، يفتح عينيه على حقيقة لم يستطع أن يصدقها أو يتقبلها يومًا فيبقى محبوسًا في طفولته التي عجز عن مغادرتها حتى يعود ما سُلب منه "والده!" لتتقاذفه في محبسه الصغير مشاعر هي خليط من الحزن والألم والفقد والعناد والكره لكل من سلبه أغلى ما ملكه وبشكل خاص لمن كان الأغلى!

دارت عليه الأيام وكبر وأصبح شابًا لكنه من داخله لم يكن كذلك، ظل طفلًا يعاند ويصارع للتغلب على الألم الذي سببته له الحياة واليتم الذي ظل عالقًا في حلقه لا هو ابتلعه ولا هو لفظه خارجًا. يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه، وفي صدره تدوي صرخة نجح كثيرًا بكتمها ومنعها من الانفجار سوى من بعض التصرفات العنادية والنظرات الصامته والغاضبة، لكن الأمر لم يدم طويلًا، وسريعًا تحولت لبركان تجاوز انفجاره حدود صدره المتألم.

كان قد نجح في الليلة التي صفعة بها محسن بأن يبقي صرخته وغضبه حبيس صدره، لكن الأمر لم يدم طويلًا، وبقدر هدوئه المصطنع بقدر ما كان الانفجار قويًا، خلّف جرحًا غائرًا في حياته وقلبه، لدرجة أن عقله لا يزال، بعد عامين، غير قادر على استيعاب أو تذكر ما حدث، والخسائر التي خلّفها في تلك الحديقة، تحت شجرة البرتقال الغالية على أمه تحديدا. للأسف لا يتذكر شيئًا على الإطلاق سوى بركة الدم التي خلفها وراءه، رغم وقوفه الطويل بالقرب من السياج الذي يفصله عن تلك البركة التي لا بد وأنها قد جفت ويبست لكن يظل ما حدث حبيس بقعة مظلمة في ذاكرته، تتسع كلما حل الظلام وتعركه بظلمتها ودمويتها لكن لا تفصح أبدًا عما تحويه، لعله إن توغل فيها أكثر وتذكر تفاصيل ما حدث بالضبط أن يرتاح قليلًا، وليستعيد ذاكرته التي ترفض أن تفصح عما في تلافيفها حاول مرارًا قطع الشارع وتجاوز البوابة الحديدية، لعل وقوفه في الحديقة يساعده على التذكر، لكن كلما حاول التقدم تصلب في مكانه، وكأن شيئا ما في أعماقه يمنعه، وبدلا من التقدم يغادر الشارع مسرعًا وكأنه يهرب من شبح ما يحاول قتله. وككل مرة يصل في تفكيره إلى هذه النقطة يغادر الشارع دون أن يلتفت للوراء فيبدو أن علاقته مع ساكني هذا البيت أصبحت لا تتخطى أطيافهم التي تزوره في المساء، ولعل هذا كافٍ.

وصل خالد أخيرًا لمقر عمله بعد تأخر ربع ساعة، سجل حضوره وفتح جهازه كما يفعل كل يوم.

***

٢

بعد خروج خالد إلى عمله، تناولت فاطمة فطورها ثم شغلت نفسها بترتيب غرفتها وغرفته المرتبة أصلًا. أخرجت أدوات الخياطة وجلست على كرسيها الهزاز تضع اللمسات الأخيرة لكنزة صوفية عكفت على حياكتها لأيام مضت. ابتسمت برضا وهي تتفحص ما صنعته يداها اللتان لم تفقدا مهاراتهما. طوت الكنزة التي اكتملت ووضعتها في الدرج بحذر كأنها تضع طفلًا صغيرًا في فراشه، مع أن مصيرها سيكون لدولاب الملابس بجانب أخياتها، فمن تخيطها لأجله لم يأتِ للوجود بعد، ويعلم الله متى يفعل. كانت الكنزة الرابعة التي تكملها، والتي تخيطها لحفيدها، على أمل أن خالدًا سيتزوج وسيرزق بطفل أو أطفال، هكذا تمني نفسها وتصبرها على وضعها الحالي.

التفتت نحو الساعة المعلقة على الجدار لتتأكد من أن الوقت أصبح مناسبًا لتجري اتصالها الذي عزمت عليه الليلة الماضية، كانت تشير للعاشرة والنصف صباحًا: "لا بد وأنها استيقظت من نومها." تمتمت وهي تتجه إلى سماعة الهاتف. طلبت رقمًا تحفظه عن ظهر قلب، وانتظرت قليلًا ليأتيها الصوت من الجهة الأخرى. بدأ حديثًا عاديًا، وسؤالا عن الحال، صمتت لبرهة قبل أن تطرح سؤالًا على السيدة في الطرف لتنتظر الجواب بفارغ الصبر:" لا يزال مسافرًا؟!" نطقتها بخيبة أمل أزالت الابتسامة التي كانت تعلو وجهها منذ بداية المكالمة، وكأن الأمل الذي حملها على جناحيه منذ المساء ورفعها عاليًا قد أفلتها بغتة لتتناثر أشلاء روحها على سطح صلب: "حقا؟!" أشرق وجهها مجددًا، لملمت أشلاءها من

على قارعة طريق الخيبة وعادت لتبحث عن جناحي الأمل. أخبرتها السيدة في الجانب الآخر بشيء أعاد إلى وجهها لونه ولشفتيها ابتسامة بالكاد عرفتها منذ زمن ليس بالقصير: "بكل تأكيد سآتي، مع السلامة." أنهت المكالمة، مرت دقيقة قبل أن تفلت سماعة الهاتف من يدها، هزت رأسها برضا ودخلت المطبخ تشغل نفسها بإعداد الغداء.

❋❋❋

٣

في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، كان سعيد في شقة متوسطة في حي منهاتن في نيويورك، يجهز حقيبته استعدادًا للعودة إلى وطنه في إجازته الصيفية، بعد أن مضى عامين دون أن تتخللهما أي زيارة لوطنه ولو قصيرة. أكمل تجهيز حقائبه وخرج يتمشى حتى حلول المساء. رغم أنه لا يحب الدخول إلى السنترال بارك في أيام الأحد حيث تكتظ بالرواد، لكنه وصل إليها أخيرًا، أو بالأحرى خرج قاصدًا إليها. ترك لقدميه الحرية لتأخذه حيث يشاء وعيناه تجولان دون تركيز. جلس بالقرب من عائلة أمريكية تعلو أصواتهم بين الحين والآخر. تشاجرت طفلة مع أخيها الصغير على مكان الجلوس فنهرتها أمها. انزوت الصغيرة بعيدًا لتبكي، نظرت إليه بعيون دامعة، ابتسم لها وأخرج مذكراته ليدون بعض الأفكار التي تزدحم في مخيلته:

"الأطفال هنا صاخبون، ولعلهم كذلك في كل بقعة إلا في بيت محسن النجار حيث الهدوء المصطنع الذي يخفي خلفه مشاعر متضاربة. لا يتوقف الأطفال هنا عن البكاء والشجار، تتذمر الأمهات من عنادهم وضجيجهم. ليت لي القدرة لجمع أمهات العالم وأقول لهن لا تفعلن ذلك، لا تكتمن صيحات أطفالكن، دعوهم يعيشون طفولتهم كما يريدون، فالطفل الهادئ ليس على ما يرام، الطفل الساكن قلبه لا ينبض بشكل طبيعي ويعاني علة ما. لم أتشاجر يومًا مع إخوتي، لم يعلو ضجيجنا في حديقة بيتنا الواسع، لم نكسر بابًا، ولم نتسلق شجرة، ولم ننثر زجاج المزهريات في صالة البيت الكبيرة، لم ننزل الدرج تزحلقًا، ولم نحفر في

حديقتنا بحثًا عن كنز مفقود.. بودي لو أعود طفلًا وخالد ورنا كذلك، لرجوتهم ورجوت نفسي أن نعيش كما يعيش الأطفال... نتشاجر ونبكي، نضحك ونتمازح نحيا طفولة عابثة وبرئية ولو لبعض الوقت..."

وضع القلم جانبًا وبحث عن الطفلة فإذا بها قد عادت إلى أخيها تتشاجر معه على البقعة الصغيرة من العشب لتجلس عليها، ابتسم لها وشرد تاركًا ذاكرته تعيد عليه بعض ذكريات الطفولة في بيته، وعندما لم يجد ما يدخل البهجة إلى قلبه عاد لتدوين مذكراته، ونقل بصره بين أرجاء الحديقة.

بحلول المساء كان عائدًا إلى شقته لينال قسطًا من النوم قبل رحلته التي ستطول. حين ترك صنعاء قبل عامين كانت آخر أمنياته أن لا يعود إليها، بل راودته فكرة أن يكمل دراسته ويستقر في أمريكا، ومع التفوق الذي عليه الآن يمكنه تحقيق هذه الأمنية لكن ما أن أصبح الفاصل بينه وبين موطنه وأهله رحلة تنتهي بعد سبعة عشر ساعة فقط تغير الوضع وما عاد يطيق صبرًا لاجتياز تلك الأميال التي أثقله طولها.

صباح اليوم التالي كان يحشر جسده بين الأجساد المتدافعة إلى صالة الانتظار. أنهى الإجراءات وانتظر رحلته متفحصًا كل من حوله كما تفحصهم حين وصل إلى هنا أول مرة.

في الطائرة فكر بوالديه بشيء من تأنيب الضمير. كيف طاوعه قلبه على تركهما طوال العامين. فكر برنا التي مازالت طفلة لا تكبر بنظره. لا بد وأن يعوضهم بشكل أو بآخر، لكن ماذا عنه؟ من سيعوضه! بكل تأكيد لا أحد.

انتهت الرحلة أخيرًا، وكما كان متفقًا استقبله سمير، ابن خاله، بابتسامته وبشاشته المعهودة. قضى معه وقتًا ممتعًا خلال زياراته المتكررة لبيت خاله، والتي زادت بعد الحادث حتى أنها كانت تستمر لأيام متواصلة. لم يكن سمير كخالد، بل على العكس. رغم أن علاقتهما كانت سطحية في البداية، إلا أن سميرًا استطاع في وقت قصير أن يقرب المسافات بينهما ويخرجه من حالته النفسية السيئة حينها، وهو صاحب فكرة السفر لإكمال الدراسة في أمريكا: "ستعود كما لم تذهب!" قالها سمير له وهو يستعد للمغادرة بعد أن لمس تردده، كان سمير صادقًا في ما قال، فعامان من الغربة في عالم مختلف تمامًا لا يجد من يلجأ إليه إلا نفسه جعلته يظهر أفضل ما لديه، ويدرب نفسه ليكون رجلًا كي لا يفقد نفسه.

- "حمدًا لله على السلامة".

هتف سمير وهو يتقدم ناحيته بوجهه البشوش. بادله التحية وواصلا طريقهما إلى السيارة وهما يتحدثان دون انقطاع. نصف ساعة وكان يقف أمام بيته. ودعه سمير وغادر بعد أن وعده بأن يزورهم قريبًا.

وقف سعيد مليًا أمام البيت. لا شيء تغير، طلاء البوابة الذي كان أبيضًا كما هو منذ آخر مرة غادره، عدا أنه بهت وبدأ الصدأ يزحف من جوانبه. دفعه ودخل وهو يجر حقيبته بعده. وقف في منتصف الباحة. بدا واضحًا أن طلاء البيت الخارجي لم يجدد خلال العامين الماضيين بعد أن كان يجدد نهاية كل عام، الأمر الذي لم تكن خالته فاطمة لتفوته مهما حدث. هز كتفيه وهو يتلفت حوله. لا شيء تقريبًا تغير في البيت سوى

سكونه المطبق الذي يوحي بأن لا أحد يقطنه حتى العصافير التي كانت لا تهدأ خلال ساعة من النهار بدا أنها غادرت أعشاشها وهاجرت إلى مكان آخر. "لعل الوضع يختلف في الداخل." تمتم وهو يلمح والدته و"رنا" تقفان على الباب في انتظار قدومه. ارتمى في حضن والدته كما كان يفعل في صغره. شعر أن سعيدًا الذي نضج تمامًا خلال عامين قد اختفى وحل محله طفل لا يتجاوز العاشرة من عمره. أدرك في تلك اللحظة لماذا لم يفكر بالعودة خلال إجازة العام الماضي، فإن عاد وتمرغ في هذا الحضن كثيرًا لن يكون بمقدوره أن يتحمل الوحدة والغربة مجددًا. لم ينتزعه من تلك اللحظة سوى بكاء مكتوم بالقرب منه، كانت رنا التي ما أن فتح لها ذراعيه حتى ارتمت هي الأخرى في حضنه، تبكي بحرقه وكأنه سيغادر للتو، لا عائدًا من سفر طويل. يعلم أنها أكثر المتضررين من سفره، طبع قبلة على جبينها وقابل نظراتها الدامعة بابتسامة حانية وكأنه يخبرها أنهما سيقضيان الكثير من الوقت ليسمع منها كل ما تريد البوح به.

- "أين أبي؟!"

تلفت حوله بحثًا عنه، فقادته والدته إلى غرفته في الدور الأرضي الذي انتقل إليه منذ حين. مكث قرابة الساعة عند والده، يحكي كثيرًا ويستمع قليلًا، ثم تركه ليرتاح وعاد إلى والدته وأخته. طلبت منه والدته أن يدخل غرفته لينال قسطًا من الراحة ريثما تعد له وجبة ساخنة تنسيه الأكل البارد في بلاد الغربة على حد وصفها، فأخذ عوضًا عن ذلك بتفقد غرف البيت وكأنه يعوض مشاهد وأحداث فاتته منذ زمن.

"لم يعد البيت كما كان." رددها في سره وهو يخرج إلى حديقة البيت بعد أن جال في غرف البيت مستثنيًا غرفة واحدة. ظلت الحديقة على عهدها وإن افتقرت إلى العناية التي حضيت بها لسنوات طويلة، غابت عنها تلك الروح التي ظلت تحلق بين أشجارها وزهورها. خلال زياراته المتكررة إلى السنترال بارك كانت دائما تجول في خاطرة حديقته الصغيرة التي كان يراها أفضل من حدائق العالم بأسرها؛ ليس لجمالها وإنما للحياة التي كانت تنبض في كل ركن فيها. حاول أن يستشعر تلك الروح والحياة لكنه عجز، فكل ما يراه مجرد ظلال أشجار هرمت وأعلنت عزوفها عن الحياة.

كانت الشمس على وشك الغروب وهو لا يزال واقفًا ينقل بصره بين البيت والحديقة. هل هذا ما عاد إليه! سكون مطبق من الداخل والخارج، اضطربت في داخله مشاعر مختلفة تجاه من رحلوا عن البيت، خليط من الاشتياق والعتاب. رغم كل ما حدث يود أن يعودوا، تنعكس أطيافهم وظلالهم على زجاج النوافذ الملون، وتردد الزوايا صدى كلامهم وهمسهم وحتى ضجيجهم الهادئ، تطرق الآذان أصوات خطواتهم، لكن... لا شيء يعود، يذهبون وتبقى ذكراهم عالقة في الأذهان، تعجز السنوات والغربة عن محوها أو إحلال غيرها محلها.

- "سعيد!"

التفتْ حيث ناداه صوت مألوف قريب من قلبه. وقفت على البوابة الخارجية للبيت قبل أن يتقرب ظلها المنعكس على الأرض نحوه بخطوات خجلة، لا بد وأن يكون طيفها قد جاء يحييه هو أيضًا.

- "حمدًا لله على السلامة يا ولدي".

لا، ليس طيفًا، هي خالته "فاطمة" بشحمها ولحمها، تقف أمامه وتمد له يدها مصافحة. لم يمد يده بل احتضنها بشوق، يقبل رأسها ويديها.

- "لا أصدق أنك هنا!". هتف بشوق.

لوهلة ظن أن عقله رأف لحاله وهو يتمنى وجودها فرسم له صورتها.

- أعتذر، حاولت أن أكون في استقبالك بمجرد وصولك لكن تأخرت لبعض الوقت رغمًا عني.
- أنت لا تأتين لأحد، بل أنا من يأتي إليك.
- هل أنت بخير؟!
- كأفضل ما يكون، اشتقت لك بقدر شوقي لأمي.

ابتسمت له، أخذها من يدها ودخل البيت، سرت في قلبه رعشة، بدت له أنها شعور بالسعادة. قبَّل يديها قبل أن ينادي أمه. كانت طاولة الطعام جاهزة، فجلسوا عليها. صحيح أن العدد ينقصه أطراف رئيسية، لكن العيون التي احتضنته بنظراتها المشبعة بالحب والحنان جعلته يشعر أخيرًا أنه بالفعل عاد إلى بيته. مضى الوقت سريعًا، هو يحكي وهن يصغين، وأحيانًا العكس... اطمأنت فاطمة على محسن واستأذنت للرحيل.

- "ابقي هنا!"

قالوا متوسلين.

- "علي أن أذهب، سيقلق خالد."

حيتهم وهمت بالمغادرة.

- "انتظري"!

قالها سعيد وهو يلبس معطفه :"سأوصلك".

حاولت إقناعه بأن لا ضرورة لذلك، لكن عبثًا... دقائق وكانت سيارته تقف تحت العمارة التي تسكن فيها. لم تكن تبعد كثيرًا عن البيت، لاحظ ترددها قبل أن تنزل فهمس: ما بك يا خالتي؟!

- سلامتك.

- أرجوكِ تحدثي، عينيك كانت مليئة بالكلام لكنك لم تقولي شيئًا خلال الزيارة.

- خالد!

خرجت من بين شفتيها دون مقدمات...

- ما خطبه؟

- يموت في اليوم مائة مرة، لا يذوق طعم النوم كسائر البشر، لا تمر عليه ليلة دون أن تخترق صرخاته وتوسلاته سكون الليل وتدمي فؤادي عليه...

صمتت للحظة كأنها تستجمع كلماتها ثم تابعت:

- ما أن أضع رأسي لأنام حتى يفزعني صدى صراخه، ينادي طيفًا ما متوسلًا كأنه يشاركه الغرفة، وعندما أدخل عليه، يكون في

حالة يرثى لها، يبكي على صدري كطفل، وهو يشير نحو النافذة وينظر نحو السقف بنظرات ملؤها الرعب والهلع. لم أدع طبيبًا إلا وعرضته عليه، ولم يترك دواء إلا وجربه، لكنه لا يريد إلا "سعيدًا"!

انتظرته أن يتحدث، أن يقول شيئًا، لكن عينيه تسمرتا على مقود السيارة دون أن يتفوه بكلمة، مسحت دموعها بيدين مرتعشتين وبصوت ممزوج بالدموع همست:

- كنت أدرك أن ما أطلبه مستحيلًا، لكني لم ألجأ إليك إلا بعد أن تعبت فلم أدع بابًا إلا وطرقته. حمدًا لله على سلامتك يا بني وسامحني على إزعاجك.
- انتظري... انتظري أرجوك!

صمت لبرهة قبل أن يكمل:

- سأحاول أن أتحدث معه، لكن ليس اليوم، فقط أمهليني بعض الوقت.

أومأت برأسها وهي تمسح بقايا دموعها. أوصلها لباب العمارة وهمَّ بالمغادرة، وقبل أن يستدير التقت عيناه بعيني خالد الذي خرج للتو من باب العمارة، تسمر كلاهما لثانية أو جزء من الثانية، شعرت فاطمة أنها حياة بكاملها، فها هما يواجهان بعضهما بعد هذه السنوات. تمنتْ أن يحدث بينهما شيء ولو كان نقاشًا حادًا أو حتى شجار، المهم أن يقولا ما يكسرا حاجز الصمت الذي عشعش بينهما لسنوات، لكن سعيدًا

التفت ناحيتها، حياها بايماءة صامتة وغادر دون أن ينبس بكلمة. خطت نحو خالد بتثاقل وقد تبخر الأمل الذي لاح لها لوهلة، "ألن تدخل؟!"

قالتها لخالد الذي استدار بتثاقل أكثر وكأنها أيقضته من نوم عميق. عاد معها للداخل دون حتى أن يسألها ما الذي حدث للتو، ولا أين كانت أو لماذا تأخرت؟ كانت تسير بجانبه وتتمنى لو تغوص في أعماقه، لتلمس وقع رؤيته لسعيد، لكن ملامح وجهه الجامدة لم تقل غير الصمت.

لامت نفسها على الموقف الذي وُضعتْ فيه بزيارتها لسعيد فور وصوله وطلبها المفاجئ له، ثم لم تلبثْ أن وجدتْ لها بعض العزاء، فليس بيدها حيلة سوى المحاولة، ثم إن سعيدًا ابنها أيضًا، وليس غريبًا عنها. كثيرًا ما جاء إليها متذمرًا من سوء معاملة خالد له، فتطيب خاطره بكلمتين وتحاول أن تنسيه هواجسه وتطردها من مخيلته. "يااه على الزمن" رددتها في أعماقها بحرقة، لم تتوقع أن يأتي اليوم الذي تذهب هي إلى سعيد لتشتكي له من خالد أيضًا.

❋❋❋

٤

حين وجدته صامتًا تحدثت فاطمة، وكأنها تجيب عن سؤال لاح في عينيه: "عاد سعيد للتو من سفره فذهبتُ لأسلم عليه وأطمئن على محسن."

- "حسنًا"! قالها وهو يدخل غرفته.
- "ألا يعنيك الأمر؟"
- "لا."
- "هل أجهز لك العشاء؟"
- "لست جائعًا."

واصل سيره دون أن يلتفت نحوها. جلس على الأريكة الوحيدة في غرفته، وبيدين مرتعشتين تناول مصحفه وقرأ فيه بعض السطور ليهدأ قليلًا كما هي عادته كلما عبثت به الأفكار. لم يجد ما يؤنس وحدته غير مصحفه الصغير. كلما تضافرت عليه الذكريات المغموسة بالألم، يهرع إليه، صديقه الوحيد، يحاول البحث بين حروفه على بلسم يلطف فيه جرحه، وسريعًا انزلق في دوامة عنيفة من الأفكار المتداخله، حاول سحب نفسه من وسطها والتركيز في الحروف التي بدأت تتلاشى أمامه، لكن لم تلبث عينا سعيد أن رمقته بنظرة غير مفهومة.

- "سعيد!"

خرجت من بين شفتيه وهو يعيد المصحف إلى مكانه. حاول النهوض لكنه شعر بإعياء ودوار أرغمه على معاودة الجلوس. هاجت في

داخله زوبعة من المشاهد المتداخلة. أوشك أن ينادي والدته لكن صوته لم يسعفه. أغمض عينيه لتخف موجة الغثيان التي تحاول اعتصار معدته. أخذ أنفاسًا طويلة وهادئة، كما علمه الطبيب كلما هاجمته نوبة من الانفعالات.

ردد الاسم مجددًا بحروف واهية، متقطعة، رويدًا رويدًا بدأت أحشاؤه تهدأ، والمشاهد التي امتزجت ببعضها تتلاشى. اختفت عينا سعيد، اختفت الغرفة وكل شيء حوله، وحتى هو... جسده، روحه، قلبه الذي ينبض في صدره بقوة وخفوت في آن واحد، شعر بنفسه يحلق مبتعدًا عن ذاته ومن حبسه الذي حبس نفسه فيه منذ قرابة الثلاثة أعوام. حلَّق عاليًا حتى امتزجت أنفاسه مع السحب البيضاء، وأخيرًا وجد نفسه يقف على نافذة غرفته، لا ليست هذه، بل تلك التي يلقي عليها تحية صباحية صامتة كلما ذهب إلى العمل. ها هو الآن يقف عليها، يرفع ستارتها ويرى من خلال الزجاج الذي نظفته أمه في الصباح، لسنوات ظل يراقب من خلالها، لكن هذه المرة لم يكن يراقب عمه محسن وأولاده حوله بل يرى نفسه وهو جالس تحت شجرة البرتقال يقرأ في رواية "الخيميائي" التي أهداها له صديقه بعد أن لمس شغفه بالقراءة.

لم يكد يبدأ في السطور الأولى منها حتى وجد نفسه مشدوهًا بمتابعة رحلة راعي الغنم سينتياغو وهو يبحث عن كنزه المفقود، ورغم رحلته التي اتسمت بالمشقة الخاصة، وكل المخاطر التي تعرض لها، لكن إيمانه بأنه سيجد الكنز لم يجعله يتوقف لحظة واحدة عن مواصلة البحث. بالأحرى كان يبحث عن ذاته لا مجرد كنز مدفون تحت التراب..

أخذ يتابع المحن والمصاعب التي واجهت بطل الرواية والتضحيات التي قدمها لأجل تحقيق هدفه، وتمنى في أعماقه لو يحصل على بعض عزيمته، أن يكون بمثل قوته وعزمه. القوة التي لمسها فيه وهو يواجه قسوة الصحراء والبشر أشعرته إلى أي مدى هو هش من الداخل، يعجز هو عن المواجهة بقدر ما يتقن فن الهروب والاختباء، ويستسلم من أول تحد يقف أمامه. تأكد وهو يقرأ الحروف أن قرار الراعي خوض غمار المغامرة لم يكن فقط من أجل الذهب، بل كان يبحث عن القوة الكامنة فيه، يثبت لنفسه أولًا أنه قادر على صنع ما يريد متى أراد.

أخذ خالد يقرأ الرواية وكأنه يقرأ لنفسه التي يريدها أن تكون، ويتمنى العثور عليها بين ركام نفسيته المحطمة والمهزومة، أن يصل لتلك الذات التي لا تعرف طريق الانهزام بسهولة ولا تتخلى عما تريد عند أول مطب.

يكاد يكمل قصته التي لم يتبق منها سوى صفحات فقط، يدفعه الشوق لقراءة النهاية، فلعله يجد نهاية لما هو فيه بين سطورها، باغته صوت سعيد بشكل استفزه وأخرجه من جو السكينة التي كان يجدها:

- أنت تعلم أني لا أحب أن أذاكر إلا تحت هذه الشجرة ورغم ذلك تستمر في المعاندة.

اعتدل خالد بجلسته وهو يحاول أن يكون هادئًا قبل أن يجيب على أخيه سعيد:

- والله الحديقة واسعة، تتسع لمائة مثلي ومثلك، ثم لا توجد لافتة تحذيرية هنا بأن هذا المكان حكر على سعيد دون غيره، يا أخي اذهب أينما تريد واتركني لشأني.

وقبل أن يعود لمطالعة روايته، اخترق ما تبقى من انسجامه صوت محسن غاضبًا:

- اترك المكان لأخيك ليذاكر دروسه وابحث لك عن مكان آخر تنهي قراءة قصتك، ليتك تتوقف عن قراءة هذه التراهات وتنتبه لجامعتك جيدًا.

نزلت كلمات محسن كمطرقة تدق على رأسه بقسوة، لا تقل قسوة عن الصفعة التي تلقاها منه قبل أيام، التفت إلى سعيد فإذا بابتسامة نصر تعلو وجهه، أحس أنه لا يستطيع تحمل المزيد، غلا الدم في عروقه وأظلمت الدنيا أمامه فغاص في عتمة حالكة تشبه تلك الليالي التي يرحل فيها القمر والنجوم بعيدًا.

- "يا مجنووون.. أفلت هذه من يدك."

بدد صوت محسن الغاضب بارتعاشة خائفة الظلام الذي حل فجأة. اختفت العتمة، تلاشت السحب الكثيفة المظلمة، وكأن الصباح أشرق مرة واحدة قاذفًا بالليل بعيدًا جدًا، عادت لخالد قدرته على الإبصار، رفع الستارة أكثر ليرى ما الذي يحدث تحت الشجرة بالضبط، كتم صرخة كادت أن تتحرر من صدره وهو يرى نفسه بين ذراعي محسن يجاهد ليمنعه من الحركة، بينما قبض هو بكفه على حجر، رفع بصره فوجد خالته "فادية" تبكي بشكل هستيري وهي تحتضن سعيد الذي اختفت الابتسامة

من شفتيه والدم يتدفق من جبهته، تناه إلى سمعه بكاء أمه المكتوم وقد جثت على ركبتيها وهي تضرب رأسها وصدرها بقلب محروق، في تلك اللحظة شعر أنه ما عاد يقف على النافذة، ترك مكانه ليستوطن الجسد الذي يمسك به محسن تحت الشجرة، قبضة محسن تؤلم ذراعه بشدة، ونحيب أمه الصامت يخترق أوردته.

"دم.. سعيد.. قاتل".

دوت الحروف في رأسه كخلية تقطنها ملايين النحل، تداخلت الصور في بعضها، والهواء الداخل إلى صدره يختفي ويتناقص بشكل متسارع، نقل بصره بينهم كالأبله، لا يدري ما الذي حدث ولا كيف؟!

خيم الظلام مجددًا، أغمض عينيه محاولًا فهم واستيعاب ما حدث لكن الضجيج والصراخ أفقده القدرة على التركيز، سمع صوته وهو يفر من حنجرته بصرخة أودعها ما تبقى به من قواه، أرخى يديه وترك الحجر يسقط على الأرض، وترك جسده هو الآخر يسقط في هاوية مظلمة لا قرار لها.

عندما فتح عينيه كان نائمًا على سرير بجانبه والدته، وهي لا تكف عن البكاء. عدَّل جلسته، سألها لماذا هو هنا؟! لكنها لم تجب، تذكر الدم ووجه سعيد لكنه عجز عن تذكر تفاصيل ما حدث، شعر بألم حاد برأسه، علا صراخه في الغرفة، ولم يسكته إلا حقنة نام بعدها ساعات طويلة. قضى في المستشفى أيامًا ليست بالقصيرة إثر انهيار عصبي حاد. انفرط عقد هدوئه واتزانه، كلما انتهى مفعول الحقنة وعاد إلى وعيه لا يكف عن الصراخ وهو يضرب رأسه بكلتا يديه عاجزًا عن تذكر ما حدث، وما

قيل له أنه حاول قتل سعيد لكنه لم يصدق، كيف له أن يفكر بالقتل وهو الذي يقشعر بدنه إذا رأى قطرة دم.

انتهت فترة علاجه وانتقل مع والدته للعيش في شقة صغيرة، اشتراها لهما محسن بعد أن رفضت والدته العودة لبيتها، وكأنه انتقل من بؤس إلى بؤس أشد، ومن عزلة إلى عزلة أكثر انغلاقًا.

- "يااااه"!

قالها خالد وهو يمسح بقايا دموعه، ويحاول سحب نفسه من رحلته إلى أعماق ذاكرته، لذلك النهار المشؤوم الذي ظل مغيبًا في دهاليز عقله لثلاثة أعوام. اعتدل في جلسته ووزع نظرات مريرة على الغرفة التي شهدت أسوأ لياليه وكوابيسه، مع شبح سعيد الذي يلقي بظلاله من النافذة أو نقطة ما في السقف... ليالٍ طويلة مرت عليه وهو يحاول خنقه، يغرقه في بركة من الدم، يرمقه بنظرات جامدة وأحيانًا متقدة بالكره والحقد. يرغب في الانتقام منه على ما ارتكبه بحقه.

شعر بصداع رهيب ورغبة في التقيؤ؛ فلم يكن ما مر به طوال السنوات الماضية بأسوأ من الحقيقة التي تجلت أمامه الآن. نظرة جامدة من عيني سعيد التي حدقت، ثانية أو جزء منها صنعت فارقًا في واقعه.

تحامل على نفسه ووصل بصعوبة إلى سريره. أخذ حبوبه ودون تردد ابتلع ثلاثة أقراص دفعة واحدة. يريد حقًا أن ينام، ينام بعمق كما لم ينم من قبل.

❋❋❋

٥

عاد سعيد إلى البيت بوجه غير الذي خرج به. ألقى التحية على والدته وأخته. اطمأن على والده من الباب وتوجه من فوره إلى غرفته وسط تساؤلات صامتة من حوله. رمى بنفسه على سريره وهو يفكر في وعده لخالته. للتو عاد من سفر طويل، لم يضع في الحسبان خالدًا لا من بعيد ولا من قريب، في غفلة منه يجده على قائمة أولوياته التي لا مفر منها... يكذب على نفسه بأن سنوات ابتعاده عن البيت والبلاد قد ساعدته على نسيانه تمامًا، كان طوال الوقت حاضرًا في ذهنه، ترتسم تحت اسمه علامة استفهام كبيرة يعجز عن الإجابة عنها.

- "لماذا؟!"

لم ينفك صدى هذا السؤال عن التردد في مخيلته...

- "لماذا كرهني خالد إلى الحد الذي يجعله يحاول قتلي؟!"

اعتصر قلبه ألم مباغت يماثل الألم الذي سببه خالد له قبل ثلاثة أعوام.

- " غبي!"

قالها لنفسه بعد أن شعر بالغباء حقًا، فلماذا يعِد بما لا يقدر عليه، ولماذا يجبر نفسه على مد يد العون لمن لم يجد منه سوى القهر صغيرًا والألم كبيرًا، أطفأ النور محاولًا النوم وقد عزم النية على الاعتذار لزوجة أبيه عن أي وعد بدر منه بدافع الإحراج ليس إلا.

نام لأكثر من عشر ساعات متواصلة، وعندما خرج من غرفته في اليوم التالي كانت عيناه متورمتان وجسده منهك وبالكاد يرفع يده، كأن النوم قد أتى بمفعول عكسي معه. تذكر أخته رنا وآخر رسالة بعثتها إليه،، بشأن خطيبها. أسرع إلى غرفتها، وبمجرد رؤيته تركت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه:

- كيف أنت الآن؟
- الحمد لله، أفضل.
- ما الذي حدث بينك وبين خالتي فاطمة؟
- لا شيء ذا أهمية، أخبريني الآن ما حكاية خطيبك وما الذي يقلقك منه؟
- كما أخبرتك لا أرتاح له ولتصرفاته وتملقه لوالدي، في كل مرة يزوره لا يخرج إلا بعد أن يوغل صدره على خالي أحمد وابنه سمير، يوهمه أنهما يتلاعبان بحسابات الشركة ويحاولان الاستيلاء عليها!
- هل يفعلان ذلك حقًا؟
- من المستحيل أن يفكر خالي بمثل هذا الأمر، لولاه لما استمرت الشركة يوما إضافيًا بعد مرض والدي وسفرك وغياب خالد. أشعر أن ساميًا يريد أن يحصل على ثقة أبي ليحصل على وظيفة قيادية في الشركة. للأسف يبدو أن أبي بالفعل يفكر بإعطائه بعض الصلاحيات كما فهمت من آخر حوار بينهما. هذا ما دفعني

للكتابة لك لتتلافى الأمر قبل أن يحدث ما نخشاه. ما عاد كلام خالي أو سمير يجدي نفعًا مع والدنا، لعله يستمع منك أكثر. أتمنى أن توقف ساميًا قبل أن يسبب المزيد من المشاكل بين خالي ووالدي ويهد كل ما بناه محسن النجار، في لحظة طيش.

- وأنت؟!
- ماذا عني!
- هل أنت مقتنعة بخطبتك له، ستوافقين على إتمام الزواج منه؟
- لم أقتنع به يومًا، لكن أمام إلحاح أبي لم أجد بدًا من الموافقة المبدئية، وحين أتخرج سيفرجها الله من حيث لا أحتسب.
- دعي هذا الأمر عليّ!

بدا كلام رنا مقلقًا ومقنعًا إلى حد كبير، هو نفسه لم يرتح لسامي يومًا، وفكر طويلًا بطريقة لإنهاء خطوبته من رنا في أول فرصة تتاح له، أما وأنه تمادى أكثر في خداعه لأبيه فلا بد وأن يتصرف. بقي له عامان ليحصل على شهادته، بعدها سيكون موجودًا بشكل دائم للتصدي له، لكن هل يضمن ألا يتهور والده أكثر خلال هذه الفترة. فكر بمخاطبة والده لكن حالته الصحية لا تشجع أحدًا على مناقشته في مواضيع العمل، أو حتى في أي موضوع خاص، لم يكن أمامه إلا خاله، سيناقش معه الأمر ويجد حلًا لسامي يقنع الجميع خاصة والده المخدوع به.

بعد يومين من وصوله توجه سعيد لزيارة خاله. كانت زيارة قصيرة لكنه عرف الكثير من خلالها عن سامي. تأكدت له هواجس رنا، وبقي

عليهم أن يتصرفوا معه بحكمة ليزيلوا الثقة التي يحوزها في قلب محسن الذي وجد نفسه في لحظة دون سند أو ولد يحمل همه ويشعره أن هناك من يمكن الاعتماد عليه.

مر من الشارع الذي توقف فيه قبل يومين، لمح العمارة التي تقطنها زوجة أبيه، وخالد. اختفى سامي من مخيلته لوهله وحل محله خالد، واصل طريقه لكن بدل العودة إلى البيت قاد سيارته في اتجاه آخر، شعر بحاجة للوحدة وقضاء بعض الوقت بعيدًا عن كل شيء، قاد سيارته دون هدى، وأخيرًا أوقفها بعيدًا عن الضجيج، ترافقه بعض ذكريات الأمس البعيد والتي استيقظت بمجرد عودته. ألقى برأسه على مسند الكرسي، وغاص في نقطة ما في ذاكرته.

ما أن صرخ والده في خالد لينهض من مكانه تحت الشجرة حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة نصر وهو يراقب خالدًا ونظرات الغضب في عينيه، لكن لم تدم ابتسامته كثيرًا، فسريعًا سحبته دوامة ألم لا يحتمل، ليفقد وعيه بعد لحظات ويفقد الإحساس بكل ما حوله.

عندما استعاد إحساسه بنفسه وبالآخرين، كان نائمًا على ظهره، عاجزًا تمامًا عن فتح عينيه، فالألم في رأسه رهيب إلى حد لا يُطاق. أراد أن يصرخ في والدته لتسكت لكن عبثًا، حاول تحريك شفتيه، وأخيرًا جاء صوت والده يخاطبها وكأنه يتحدث بالنيابة عنه:

- بالله عليك توقفي عن هذا البكاء.
- أنت السبب.. أنت السبب!

- الوقت ليس مناسبًا لهذا الحديث.
- ومتى وقته؟!
- إن لم تقفلي فمك سأطلب منهم أن يخرجوك من هنا!
- "أمي!"

أخيرًا خرج صوت سعيد واهيًا منكسرًا. هرعت إليه والدته تتحسس وجهه بيدين مرتعشتين...

- أريد ماءً.

ناولته الماء وعادت تتفحص اللفافة التي غطت نصف وجهه وهي تجاهد لحبس دموعها، أما هو فاستمر بمحاولاته لفتح عينه المتحررة من الشاش. ما أن نجح حتى عاد لإغلاقها مجددًا، شيئًا فشيئًا استعاد ما حدث تحت الشجرة، بلمح البصر انقض عليه خالد يضرب رأسه بحجر لا يدري كيف وصل ليده التي كانت ممسكة بكتاب، أما هو فقد باغتته المفاجأة وشلت حركته تمامًا، لم يحاول المقاومة أو حتى الهرب مع أن بنيته أقوى من بنية خالد بكثير.

عادت والدته للنحيب وعاد صوتها ينخر في الجرح المفتوح في رأسه، تحسسها بيده حتى أمسكها، اقتربت منه أكثر وعندما شعر بوجهها قريب منه طلب منها بصوت متقطع أن تصمت فهدأت أخيرًا وإن لم تهدأ الآلام في رأسه.

فتح سعيد عينيه، عائدًا من رحلته لتلك الزاوية المنسية في ذاكرته التي قلما يحب الذهاب إليها، ليس خوفًا من استشعار الألم مجددًا، لكنه

لم يكن ليتحمل اختبار مشاعر القهر التي ذاقها على يد خالد. عدل مرآة السيارة متأملًا انعكاس وجهه عليها والندبة التي أخذت حيزًا كبيرًا على جبينه.

- "ليس الأمر سيئًا جدًا." رددها وهو يلمس أثر الندبة.

غادر سيارته وتمشى مبتعدًا. جذب انتباهه مجموعة أطفال يحاولون عبثًا إطلاق طائرة ورقية في الهواء، راقه المنظر فتوقف لمراقبتهم. لم تمض لحظات من المحاولات غير اليائسة من الأطفال حتى تعالت أصواتهم فرحًا تشيع طائرتهم التي تحلق في السماء، تحررت عاليًا طائرتهم الورقية ولم تغادر طائرته الغالية الثمن دولاب ملابسه!

ألقى نظرة أخيرة عليهم وهم يتقافزون فرحًا واتجه نحو سيارته.

- سأعود إلى حياتي وأنسى كل هذا.

وصل سعيد للبيت بعد غياب دام ساعات، جلس مع رنا وطمأنها أنه سيجد حلًا لسامي، ثم أمضى بعض الوقت مع أبيه:

- هل ستعود إلى أمريكا؟

باغته سؤال والده. أومأ رأسه إيجابًا. يعلم والده أنه لم يكمل دراسته بعد، لكن يمني نفسه أن سعيد سيبقى إلى جانبه. هز رأسه بأسى واستأذن سعيد بذريعة أنه يريد أن ينام. كم يشفق عليه ويشتاق إليه، حتى اللحظات التي كان صراخه وغضبه يهز كل من في البيت، يعجز عن رؤيته يذبل أمامه بتلك الطريقة. ليته يعود لقوته وجبروته، أودعه قبلة حارة بين عينيه. أمام انهيار والده، شعر برغبة جامحة للذهاب إلى خالد كي

يستعين به ليكون بجانبه، فهو رغم كل شيء يحتاجه الآن كما يحتاجه والده!

خرج سعيد فاعتدل محسن في جلسته. لا يرغب في النوم حقا، ولماذا قد يفعل وهو يقضي نهاره على السرير! عودة سعيد بعد غياب عامين أعادت له بعض الأمل بأنه لن يغادر، لكن يبدو أن عليه الانتظار أكثر وإن كان غير متأكد أن العمر سيتيح له فرصة رؤيته مجددًا.

❊❊❊

٦

انتظرت فاطمة زيارة سعيد الذي أعاد لها وعده الأمل باستعادة ابنها. ظلت تقتات على هذا الأمل الباهت طوال الأيام التالية لزيارتها له. مضى أسبوع وأسبوعان دون أن يظهر أو حتى يتصل، وأخيرًا أخذ بصيص الأمل بالنفاذ، تسرب بالكامل من قلبها وعاد الانقباض أكثر من السابق، كمن أقنع نفسه بأنه وجد باب الخلاص أخيرًا ليُفاجأ بأنه مجرد سراب أو وهم. همت بمهاتفته أكثر من مرة لكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة. توقفت أخيرًا عن مراقبة الساعة والشارع بين الحين والآخر، والجلوس الطويل بجانب الهاتف.

في قرارة نفسها لم تلمه، بل أنَّبت نفسها أن وضعت نفسها وابنها في مثل هذا الموقف. من حقه أن يغضب من خالد ولا يسامحه، من حقه ألا يأتي أبدًا. ارتسمت على شفتيها ابتسامة ممزوجة بالقهر وهي تجلس على مائدة العشاء شاردة الذهن لا تمتد يدها لشيء، رغم أنها لم تتذوق شيئًا طوال النهار. راقبها خالد بصمت دون أن يقول كلمة، فمنذ عودتها من زيارة سعيد وهو بالكاد يخاطبها، أو حتى يرغب بالحديث معها، حتى زياراته الصامتة الصباحية إلى بيت محسن توقف عنها. أخيرًا ماتت في داخله الرغبة للعودة إلى هناك بعد أن تذكر ما حدث في آخر يوم له فيه. أكمل طعامه ثم دخل غرفته، وجلست هي تتابع برنامجها، حانت منها التفاتة إلى باب غرفته الموصد. تلتقط بين الحين والآخر صوته وهو يرتل ورده المسائي، انتبهت أخيرًا أنها طوال الأيام الماضية لم تعد تسمع صراخه وتوسلاته، انشغالها بزيارة سعيد وانتظارها القلق له أنساها أمر خالد

وليالية المتقلبة، لكن لياليه الماضية لم تكن كذلك. أوشكت على العودة إلى برنامجها لكنها تذكرت أمرًا جعلها تقفز من مكانها، فحبوبه المنومة تناقصت بشكل كبير خلال الأيام القليلة الماضية، فكل خمسة أيام تجد شريطًا فارغًا!

قررت أن ترى ما يحدث معه بنفسها ولا تنتظر من أحد أن يحل لها مشاكلها الخاصة، توجهت لغرفته وفتحتها دون أن تطرق الباب، التفت لها ثم عاد ليقرأ:

- هل تناولت حبوبك؟

بادرت خالد بنبرة حادة وضعت فيها خيبتها من تجاهل سعيد طلبها.

- ليس بعد!
- كم حبه تتناول في الليلة؟
- أمي أرجوك، اتركيني وشأني الآن.

نظرت إليه بأسى ممزوج بالغضب واقتربت منه قائلة: "ما خطبك؟"

- لا شيء!
- خالد، ما الأمر؟

نظر نحوها بعتاب ممزوج بالخجل قائلًا:

- حاولتُ قتل سعيد، أتذكر الآن كل شيء، لوثت يدي بدمه!

جلست إلى جانبه بينما تابع هو:

- حتى الآن لا أفهم لماذا غُيبت هذه اللحظات من مخيلتي، بل كيف حدث ما حدث، ولماذا؟!

- قدر الله وما شاء فعل، والحمدلله أنه سليم معافى.

نظر نحوها دون أن يجيب، بينما سألته هي:

- ولماذا ضاعفت الجرعة؟

نظر إليها بشرود قبل أن يجيب وهو يهز كتفيه:

- لا أعلم... أريد فقط أن أنام بعمق.

- لست قاتل يا بني، أرجوك كف عن تدمير نفسك، نحن بحاجتك، أنا ووالدك بحاجتك وأخوك أيضًا؟!

- أرجوكِ، كفّي عن هذا الهراء، محسن هو زوجك فقط وليس والدي!

قاطعته بحدة: "خالد!"

تعمد أن يتجنب النظر في عينيها وهو يتابع: أرجوك يا أمي كفى، ما عدت أطيق هذا الأمر أكثر.

- خالد!

- اتركيني وشأني أرجوك، انتهى الأمر وانتهيت أنا أيضًا، ليتكما تزوجتما وتركتماني أتربى في كنف جدي لكنت الآن في حال أفضل.

- لم يكن الزواج في الأساس إلا لأجلك، أرجوك يا ولدي لا تعذب أمك أكثر.
- أمي ألا تتعبي أبدًا من إعادة هذه الأسطوانة على مسامعي، كفى أرجوك أريد أن أنام!

نظرت نحوه بيأس، ارتعشت شفتها السفلية ارتعاشة خفيفة، بدا عليها أنها ستنهار وهي ترى آخر أمل لها بإخراجه من سلبيته يموت بسرعة متناهية. وقفت وهي تسند نفسها على طرف الأريكة. لم يلتفت لها خالد. أكملت طريقها إلى خارج الغرفة وهي تترنح، أغلقت الباب خلفها، وتوقفت في محاولة منها لاستعادة توازنها، لكن شعرت بجدران الصالة تضيق وتكاد تسحق ضلوعها، أغمضت عينيها وتركت جسدها يهوي على الأرض مطلقة صرخة مكتومة.

❋❋❋

٧

سمع خالد صوت ارتطام جسد والدته بالأرض، خرج مسرعًا ليجدها ممدة على أرضية الصالة على بعد خطوتين فقط من غرفته. جثا على ركبتيه وأسندها بذراعيه، حاول إيقاظها لكن لم تبدر منها أي حركة. كانت هامدة تمامًا، تلفت حوله بتوتر لا يدري ما عليه فعله، كانت دائمًا هي من تتصرف لكن الآن عليه هو أن يتصرف. أعاد تحريكها لكنها لم تستجب، وعلى الفور حملها إلى أقرب مستشفى. لا يدري كيف قاد سيارته ولا كيف قطع المسافة من شقته إلى هناك، دخل المستشفى وهو يحملها بين ذراعيه، أوقف أول طبيب صادفه على الباب وتوسله أن يساعده.

بعد أقل من نصف ساعة كان واقفًا خارج غرفة الإنعاش. يحول زجاج شفاف بينه وبين جسدها المسجى، شعر أنه بسماكة جبل، وكأنه في عالم وهي في عالم آخر. ينظر نحوها لكنه ممنوع من الاقتراب، عيناه تتابعان تعرجات الشاشة على الطاولة بجانب سريرها بعينين دامعتين. كانت تعرجات خافتة مرتعشة كارتعاشة صوتها، توشك حينًا أن تستقيم، لكنها تعاود التعرج بخفوت وبطء وبالكاد تكوِّن محنيات طفيفة، لا شيء في الغرفة يوحي بالحياة، صوت ذلك الصفير المنتظم، وكأنه دقات قلبه هو، إن توقف مات حيث يقف.

علا الصفير فجأة، فقفز قلبه من مكانه، تلاشت التعرجات لتبدأ الخطوط ترسم طرقًا مستقيمة لا حياة فيها ولا نبض. هرع الطبيب إلى فاطمة، مسح هو غشاوة دموع من عينيه وهو يتابع بقلق محاولات

الطبيب لإعادة النبض إلى قلبها. يضغط على صدرها بكلتا يديه، ضغطات سريعة وقوية، وعيناه تنتقل بتوتر بين جسدها الذابل والشاشة وكأنه يستجديها أن تعاود العمل. تلفت خالد حوله كمن يبحث عن طريقة يدخل بها إليها، يتوسلها ألا تتركه، وعندما لم يجد منفذًا ألصق وجهه بالزجاج وهو يهتف:

- "يالله!"

قالها وهو يلمح الخطوط تعود إلى التعرج رويدًا حتى عادت لحركتها.. تنفس الصعداء والطبيب يشير إليه من الداخل بأن الأمور على ما يرام. شعر بدوار عنيف باغته فاستدار وأسند ظهره إلى الزجاج، هبط بجسده ببطء حتى جلس على البلاط البارد، محاولًا التنفس بانتظام. كادت الأشياء حوله تختفي ويغيب في إغماءة، لولا أن أمسك به شخص ما، أسنده ليجلس على الكرسي القريب وناوله كوبًا من الماء، شرب بعضه ورش الباقي على وجهه ورقبته. التفت ناحيته فإذا بها ممرضة، ابتسمت له بعد أن اطمأنت عليه وغادرت.

تابع الممرضة حتى اختفت. أسند رأسه على الكرسي وأغمض عينيه. مر شريط ذكرياته مع والدته لحظة بلحظة. كانت طوال الوقت بجانبه، لم تتخل عنه حتى بعد أن تخلى هو عن ذاته، حتى زوجها الذي أحبته أكثر من أي شيء آخر، ابتعدت عنه لتبقى بجانبه، وكلما فتحت له بابًا ليغادر حالة الاحباط واليأس التي علق فيها أغلقه بوجهها بعنف وكأنه يعاقبها أن أنجبته يومًا ما. كانت دومًا أُمًا رائعة وصبورة، ولم تتوانَ يومًا عن تقديم الأفضل له. لماذا استمر بمعاقبتها لدرجة الإذلال؟! شعوره أنها أذنبت في حق

والده حين تزوجت بأخيه بعد وفاته يسيطر عليه، لم يستطع التغلب على هذا الإحساس منذ أول زيارة له لقبر والده. لماذا أوهمته أن محسنًا والده ليكون وقع الحقيقة قاسية عليه حين أدركها؟! هل حقًا ضحت به لأجل مصلحتها وسعادتها أم ضحت لأجله؟! لا يستطيع أن يفهم أو أن يربط بين ما تستمر بترديده على مسامعه وبين ما يلاحظه ويلمسه، لا شيء يجبرها على أن تقوم بما لا تريد، ومع ذلك لا يتحمل فكرة أن يفقدها أو تغادر حياته دون رجعة. "يالله" رددها في أعماقه وهو يفتح عينيه ببطء، لا يعقل أن تموت وتتركه بمفرده...

تحامل على نفسه وعاد إلى الوقوف ملتصقًا بالحاجز الزجاجي، لا يدرى ماذا يقول أو يفعل لأجله ولأجلها، راقبها بصمت، كانت تنام بهدوء، أغمض عينيه، تمنى للحظة أن يعود الزمن إلى الوراء وأن يكون كل هذا مجرد حلم ينتهي بمجرد أن يفتح عينيه..

ابتسامة خاطفة مرت على شفتيه، كانت نائمة على سريرها وهو يراقبها من شق الباب. يدخل على طرف أصابعه حتى لا يوقظها، يقترب منها أكثر، يراقب تفاصيل وجهها المنهك بإشفاق، يجثو على ركبتيه ويداعب جبهتها بأصابعه، تفتح عينيها ببطء، تبتسم له، تفتح له ذراعيها لتضمه إلى صدرها. شعور جميل سكنه وهو بجوارها، كم يتمنى أن يظل هكذا حبيس صدرها لا يتركه أو يتركها ترحل. فتح عينيه ببطء لكن كل شيء تلاشى، حضنها وابتسامتها، لم يتبقَ منها إلا جسد هزيل يصارع الحياة. تأملها وهي نائمة، يتمنى أن يخترق الحاجز الزجاجي ليقترب منها بعض الخطوات لكن الأماني لا تتحقق. كانت بقربه طوال الوقت ولم

يشعر بأهمية هذا القرب إلّا الآن. اعتصره الندم وعاد ليجلس على كرسيه قبل أن تداهمه نوبة دوار أخرى.

انتظر ثمانية وأربعين ساعة لم يذق خلالها النوم سوى إغفاءات قصيرة. وما أن أخبره الطبيب باستقرار حالتها شعر بالحياة ترد إلى روحه وبأنه طفل صغيرة على استعداد لأن يتقافز بكل أنحاء المستشفى فرحًا وسعادة: "الحمدلله"، رددها بسره دون توقف وهو يتنفس الصعداء، وحين سمح له الطبيب أن يجلس معها للحظات، توسلته بصوتٍ واهٍ أن يسامحها. قبَّل يديها وغسلها بدموعه وهو يهمس لها:

- دعوت الله أن يعيدك لي فقط لأسمع منك أنك سامحتني.

أغمضت عينيها وهي تبتسم بصعوبة، ثم لم تلبث أن فتحتهما مجددًا، نظرت نحوه بعينين دامعتين وهمست:

- ووالدك؟!
- ما خطبه؟
- أما زال قلبك غاضب عليه؟!
- لأجلك سأحبهم جميعًا، فقط ابقي بجانبي ولا تذهبي... ارتاحي الآن، ولن يكون إلا ما يرضيك.

أوشك أن يتركها، لكنها تشبث بيده قائلة:

- وسعيد؟
- ارتاحي الآن يا أمي ولا تشغلي بالك بشيء.

أغمضت عينيها مجددًا واستسلمت للنوم ويدها تقبض على يده.

بمرور يومين إضافيين استقرت حالة فاطمة، فغادر خالد إلى البيت ليحضر لها بعض الغيارات النظيفة:" ووالدك؟!" تردد سؤالها في ذهنه طويلًا، وترددت أيضًا إجابته عليها:"لأجلك سأحبهم جميعًا"!

هل حقًا كان يعي ما يقوله؟! وجد نفسه يغير الطريق ويقف على مقربة من بيت محسن. ظل يراقب البيت دون أن يغادر سيارته، كانت الغرف مضاءة فيما عدى غرفته هو، لعلها كذلك منذ غادرها، ارتكب حماقة لا تغتفر بحق سعيد. قفز إلى رأسه سؤال أرهقه كثيرًا، هل حقًا حاول أن يؤذي سعيدًا، هل كان سيواصل ضربه حتى يموت إن لم يخلصه محسن من يديه؟!

آلمته الجملة الأخيرة، وعادت بركة الدماء التي غرق بها طويلًا في غرفته تقفز إلى مخيلته. إذًا كانت دماء سعيد، وكان ذلك طيف سعيد.

تشوش تفكيره أكثر، ما يرهقه هي والدته التي تصر على نعت محسن بأبيه، مع أنه لم يعد يشعر بهذه الصفة منذ وقت طويل... تنبه إلى أن شباك نافذة غرفة سعيد قد فُتح، فابتعد مسرعًا قبل أن يلمحه صاحب الظل الذي وقف على النافذة.

وصل شقته التي ظلت على حالها منذ أن غادرها وهو يحمل والدته. لا يزال التلفاز مفتوحًا، وعدة الخياطة الخاصة بها موضوعه على الطاولة. أغلق التلفاز واتجه لغرفة والدته يجهز لها بعض الثياب، لم يسبق له أن فتش في دولاب والدته، شعر ببعض الحرج والإرباك ولم يدرِ ما يأخذ لها. أثناء بحثه المرتبك عما تحتاجه وقع مظروف على الأرض، حاول إعادته

فانسكبت محتوياته. جثا على ركبتيه يلملمها، شد انتباهه صورة لوالده حسن لا تزال والدته تحتفظ بها، ولم تسلمها له من ضمن الصور التي سلمتها إياه قبل زمن، وصورة لمحسن وهو شاب، بعض الأوراق والتقارير الطبية لمحسن بعد الحريق الذي تعرض له. حكت له مرارًا عن الحادث، في كل مرة يوبخه محسن تسرع نحوه وتخبره أن محسنًا واقع تحت ضغط لا يتحمل وأن ذاكرته في خطر لذا يشعر بأهمية أن يشاركه خالد تحمل مسؤلية البيت والعمل منذ وقت مبكر، وكالعادة يرمقها بنظرة سخرية ويكرر على مسامعها بأنها تخترع القصص لتجد لمحسن العذر. قلب التقرير ثم وضعه جانبًا، والتقط مظروفًا أخرج منه رسالة من محسن إلى فاطمة تلقتها منذ وقت ليس بالبعيد، شده فضوله فقرأ محتواها.

"الغالية فاطمة...

أسأل الله تعإلى أن تكوني وخالد في أحسن حال، لولا سوء وضعي الصحي لداومت على زيارتكما بشكل يومي لكن سامحيني، ليت خالدًا يصفو قلبه من ناحيتي فالله وحده يعلم أنه ابني الذي لم أنجبه، لو تدرين يا فاطمة كم أشتاق لكلمة بابا تخرج من بين شفتيه، لكنه حرمني سماع هذه الكلمة منذ وقت طويل...

اعتني بنفسك أرجوك واعتني به جيدًا. أردت أن أعلمك أني استدعيت المحامي قبل أيام وكتبت وصيتي، لا تقلقي على خالد فقد سجلت باسمه عقار بيع وشراء وأودعت بحسابه بالبنك مبلغًا لا بأس به، سيكون كفيلًا بتوفير حياة كريمة له، إن رق قلبه على والده محسن فاطلبي منه أن يعود إلى بيته... أرجوك"!

قلَّب خالد مرفقات الرسالة وقرأ عقد بيع العقار الذي سجَّله عمه باسمه، حسابه الذي فتحه باسمه في البنك، عدا عن أسهم في الشركة مسجلة باسمه، طال جلوسه على الأرض وهو ينقل بصره في الأوراق الملقاة أمامه.

شعر بالغرفة تضيق عليه، أسند ظهره على الدولاب وسرح ببصره من خلال النافذة المفتوحة. مرت أمام عينيه كل لحظات الألم التي عاشها منذ سن مبكر بسبب عقدة "الميم" حرف واحد جرجره إلى دوامة من المشاعر من الصدمة المصحوبة بالحزن كادت أن تقضي عليه، وعندما لم يسعفه عقله ليفهم ما الذي حدث؟ ولماذا آثر الابتعاد بهدوء وتحاشى كل ما قد يفجر ما يعتمل في صدره من غضب نحو والدته ومحسن، لتتسع الدائرة فيما بعد لسعيد الذي لم يكن يتحمل وجوده بجانبه، لأنه كان يشعره بيتمه أكثر...

لملم الأوراق وأعادها إلى مكانها، جهز لوالدته ما تحتاجه من ثياب ليعود إليها، اتصل بخالاته في تعز ليعلمهن بحالة والدته وغادر الشقة. لا يعنيه ما أعطاه محسن له ولا يريده، سيعيد له كل شيء بمجرد أن تتعافى والدته. ما أراده ويريده شيء واحد فقط "حسن النجار" وللأسف لم يعد له أي وجود، ولن يعود مهما حاول.

❋❋❋

٨

في مساء اليوم التالي كانت أخوات فاطمة بجانبها، سلوى وسوسن فيما تغيبت سامية التي لم تستطع ترك زوجها المريض، وإن كانت هاتفت فاطمة بمجرد وصول الأختين إلى المستشفى.

تحسن مزاج فاطمة كثيرًا حين رأت أختيها. اطمأن خالد على والدته كثيرًا بوجود خالاته إلى جانبها. تركها بصحبتهن وجلس على كرسي غير بعيد من غرفتها يحاول ترتيب أفكاره لكنه عجز، خاصة أنه لم يذق النوم خلال الليالي السابقة. يعجز عن النوم دون حبوبه ولم يجرؤ على أخذ حبة واحدة والاستسلام للنوم وترْك والدته بمفردها لذا كان عليه أن يواصل السهر. تقدمت نحوه خالته سلوى بوجهها البشوش الذي وجدت التجاعيد طريقها إليه لكنها عجزت عن محو تلك الطلة الحنونة لها:

- كيفك يا بني؟!
- الحمد لله في أحسن حال.

أفسح لها لتجلس بجانبه. أحاطته بذراعيها كما كانت تفعل معه وهو صغير. شعر بالخجل فأطرق عينيه على الأرض هربًا من العيون التي تراقبه وتبتسم. لم يكن ممكنًا التملص من ذراعي خالته لذا استسلم، في الحقيقة أراحه الدفء الذي أخذ يتسرب إلى جسده وتمنى لو يطول الأمر فيضع رأسه على صدرها ويذهب في نوم عميق.

- هل يعلم محسن أن والدتك هنا؟

تبخرت رغبته تمامًا واعتدل بجلسته "لا لم أخبره!"

حررته وثبتت نظرها عليه بعتاب:

- محسن لا يستحق منك كل هذا.

لم يجبها بل لزم الصمت محاولًا التملُّص من الحديث معها لكنها لم تترك له فرصة للهروب. صمتت لبرهة قبل أن تعاود الحديث: "سأخبرك بأمر أظنك ستسمعه لأول مرة، لكن عدني ألا تعلم فاطمة بأني أخبرتك." وقبل أن يقدم لها أية وعود حكت له عن جده قائد ورحلته من القرية إلى المدينة ومشاكله مع أخيه الأكبر.

حكت له عن زواج فاطمة والفاجعة التي أصيبت بها في اليوم التالي لزواجها، عن والده حسن، ثم موقف محسن معها، وقراره الزواج بها فقط كي تبقى ويبقى ابنها معها، كي لا تذوق الذل على يد عمها الذي كان مستعدًا لجعلها تدفع ثمن عناد والدها معه.

كان خالد يستمع لها، وعيناه متسّمرتان على باب غرفة والدته.

- لماذا لم تخبرني أمي بهذه الأمور كلها؟ سألها بمجرد أن انتهت من الحديث.

- لعلها لم ترد أن تضايقك، كانت دائمًا تقول الميت لا يجوز عليه سوى الرحمة، لكن تعبت وأنا أراك تدمر نفسك ووالدتك، حتى محسن الذي لم نر منه ولم تر أختي منه إلا كل خير، رباك مثل ابنه ولم يبخل عليك بشيء. ورغم أنه لا ذنب له لكنه تحمل عقبات ما حدث وتزوج من أرملة أخيه التي تكبره، حتى

زوجته الثانية لم يتزوج إلا بعد إصرار والدتك بعد أن عجزت عن إنجاب المزيد من الأولاد.

كل ما أراده خالد في تلك اللحظات بعض الهدوء، لا يريد سماع شيء أو اكتشاف حقيقة جديدة. ربتت خالته على كتفه "عد إلى البيت الآن، حاول أن تنام حتى الصباح، وسأبقى رفقة والدتك حتى تعود."

وعلى الفور ترك الكرسي متجهًا إلى الخارج دون أن يودِّع والدته، تملكته رغبة في الهروب بأسرع ما يستطيع، لم يعد بمقدوره استيعاب شيء إضافي، شعر أن هاوية سحيقة تواصل شدَّه إليها دون توقف.

جلس في سيارته، أوشك أن يشغلها ثم تراجع، أبقى محركها ساكنًا، رمى برأسه إلى الوراء، يشعر بإنهاك شديد، تمنى لو أن في جيبه حبة من حبوبه، سيبتلعها الآن وينام في السيارة. فك أزرار قميصه وفتح النافذة ليتنفس نسيم الليل البارد، أرجع الكرسي إلى الوراء مغمضًا عينيه ومحاولًا استعادة انتظام أنفاسه.

راقب الحركة شبه النائمة للمستشفى. رغم مرور السنوات لكنه يتذكر جيدًا المراحل الأولى لطفولته، انتقالهم للبيت الكبير، عبثه ولعبه، تعلقه الجنوني بمحسن وتعلق محسن به، كان كل شيء على ما يرام، صحيح أن وجود سعيد ضايقه في بداية الأمر بعد أن كان وحيد والديه، لكنَّه تعلم تقبل الأمر وبدأ هو الآخر يحب سعيدًا ويتعلق به، حتى رنا كان يقاتل ليسمحوا له أن يحملها ويداعب يديها وقدميها الصغيرتين...

بدأ كل شيء يتغير ويأخذ منحى آخر في أول يوم دراسي له في الصف الأول الابتدائي. نادته المعلمة باسم "خالد حسن النجار" فلم يرفع يديه، كررت النداء لكنه لم يرد، اقتربت منه:

- أناديك باسمك يا خالد لماذا لا ترد؟! سألت باستنكار.
- أنا اسمي خالد محسن النجار يا مس!
- لا يا حبيبي، اسمك خالد حسن النجار!
- لا... بابا اسمه محسن وليس حسن.

ظنت المعلمة الجديدة أن خطأ طباعيًا قد حدث. راجعت الإدارة فتأكدت أن اسم والده حسن وأن محسنًا عمه الذي رباه، فعادت له وأكدت عليه أن اسمه خالد حسن النجار، عاد يومها إلى البيت متذمرًا، قابلته والدته عند باب البيت، توقعت أن يعود لها مبتهجًا بيومه الدراسي الأول.

- ما له اليوم حبيبي الصغير؟ سألته والدته بعد أن حررته من حضنها.
- أجابها بتجهم: ماما المس تصر على مناداتي خالد حسن النجار، أخبرتها أن بابا اسمه محسن لكنها لم تقتنع.

ألجمت المفاجأة فاطمة، فهذا ما لم تضعه في حسابها لا هي ولا محسن. لم يحاول أحدهما أن يطلعه على الحقيقة بجدية أو حتى أن يمهدا لها. وحتى عندما حاولت هي بعد ولادة سعيد تراجعت وواصلت التأجيل، لكن لا شيء يبقى طي الكتمان والنسيان، فخالد يكبر ويبدأ التفريق بين الأسماء واختلافاتها البسيطة. عاد الشعور بالذنب يطرق قلبها،

حاولت الاستعانة بمحسن ليساعدها بمصارحة خالد وإخباره أخيرًا بوالده حسن:

- أنا والده!
- لكن خالدًا بدأ يسأل لماذا اسمه مختلف عنك!
- آه صحيح، لكن لا أستطيع أن أقول له أنه ليس ابني لأنه كذلك بالفعل!
- والمعلمة؟!
- ماذا عنها؟!
- يضايقه أنها تناديه بخالد حسن.
- سأذهب إليها وأخبرها ألا تفعل.
- محسن حاول أن تأخذ الأمور بجدية أكثر، خالد بدأ يكبر وعليه أن يعرف أن والده قد مات!
- أخبريه أنتِ... أنا لا أستطيع أن أقول لابني بأني لست أباه! أنهى محسن الحوار بحزم.

لم يكن أمام فاطمة إلا أن تعترف هي بالحقيقة لخالد، أن تقنع خالدًا بأن يقبل اسمه الحالي، والذي لن يؤثر على حب محسن له، لأنه هو والده الذي رباه منذ صغره. عادت إلى خزانتها وأخرجت صور حسن التي احتفظت بها لهذا الغرض، اختارت أفضلها ووضعتها بين يدي خالد، حاولت أن توصل له بكلمات بسيطة على عقله الصغير أن من في الصورة

والده وهو ذاته أخو محسن وزوجها السابق، الذي شاء له المولى أن يموت باكرًا، لينبري محسن ويعتني بكليهما، لم يردَّ عليها خالد، فقط أخذ الصورة وحدق فيها طويلًا:

- محسن مش بابا؟! سأل مستنكرًا.
- محسن هو بابا وحسن بابا!

سكت مليًا قبل أن يستدرك:

- وسعيد؟
- ما به؟
- هو أيضًا أبوه اسمه بابا حسن؟
- لا، سعيد أبوه هو بابا محسن بس.

كان صعبًا عليه أن يفهم كل هذه الأمور، كل ما قُدِّر له أن يستوعبه أنه وسعيد لا يتشاركان الاسم نفسه، أو بالأحرى أن والده ذهب إلى الجنة ووالد سعيد لم يذهب. محسن والد سعيد وليس والده، هذا ما فهمه، وعندما حدق في محسن محاولًا أن يعثر منه على إجابة بأن ما قالته والدته له لا أثر له من الصحة، لكن الأخير أشاح ببصره بعيدًا وحاول الانشغال عن تلك النظرات القاتلة!

- محسن مش بابا!

رددها في أعماقه كثيرًا حتى تشربت بها روحه. كثرت أسئلته عن والده الذي رآه في الصورة، كيف مات ومتى ولماذا لم يخبره أحد بالحقيقة؟!

لم يجد لدى فاطمة ومحسن إجابات مقنعة، لكن جدته لوالده فعلت، أخبرته عن والده الكثير، فتحت له أبواب قلبها التي ظلت مقفلة طوال سنوات خوفًا عليه من مشاعر اليتم، حكت له عن ولدها الذي رحل عنها باكرًا، أرته غرفته وثيابه التي لا تزال في مكانها...

بعد معرفته بالحقيقة بدأت تصرفات خالد تجاه محسن تتّسم بالعناد وشيء من العنف، وكأنه يوجه له ضربة قاسية كتلك التي تلقاها على حين غفلة، أعطى لنفسه سببًا مقنعًا- بالنسبة له على الأقل- يفسِّر اهتمام محسن بسعيد ورنا أكثر منه، فالسبب يكمن في "بابا حسن" التي لم يكن يدرك من قبل أنها تختلف عن "بابا محسن"، وذلك لتشابه الاسمين، وهو ما لم ينتبه له خلال سنوات دراسته في الحضانة، لكن الأمر كان أعمق من وجود حرف الميم من عدمه، فحرف واحد حوَّل محسنًا من "بابا" إلى "عمو"، وحين كان يبحث عن عزاء أو بعضًا منه يختلي بغرفته مع صورة والده اليتيمة قبل أن يطالب والدته بالمزيد فأعطته المجموعة كاملة لتتوطد علاقة صامتة بينه وبين أب لم يعلم بوجوده إلا في وقت متأخر.

لم يعد يشعر بأية ألـفة مع كلمة "بابا" حين ينادي بها محسنًا، فهو لم يعد يراه سوى زوج أمه أكثر منه عمه أو حتى والده بالتبني، ومهما حاول إقناع نفسه بعكس ذلك لم يكن يجدي نفعًا، خاصة حين يراه مع سعيد ورنا يلاعبهما ويلاطفهما بشغف، تسوَدَّ الدنيا في عينيه.

- لماذا أنا لست مثلهما!

سؤال تردد في أعماقه لكن لم يجد له إجابة، لماذا انتُزِعَ منه والده مرتين، مرة بوفاته ومرة بعودته إليه اسمًا وصورة فوتوغرافية لا تتحدث

ولا تحتضن ولا تضمه إليه كما يضم محسن ولديه؟ حتى حضن محسن ما عاد يشعر به ولا بحنانه، بل نفور يعتريه كلما ناداه ليجلس بجانبه أو يحادثه. ولتأثير هذه المشاعر المتضاربة أخذ ينزوي في ركن خفي في قلبه، يهرب إليه من مشاعر هي خليط من الحزن والغيرة. زادت حدة هذه المشاعر في أول زيارة له إلى قبر أبيه "حسن النجار" قرأها على شاهد قبره. تجلى الاسم أمامه بوضوح وقسوة، شعر بحنين إليه مع أنه لم يره من قبل، وتأكد له بما لا يدع مجالًا للشك أنه ابن هذا الذي غيبه التراب لا ابن محسن. رغمًا عنه خانته دموعه وبكى بحرقة وكأنه للتو دُفن. أحرقه شعور اليتم، لكنه هذه المرة يتم حقيقي. كانت فاطمة ومحسن إلى جانبه، تمنى لو يتركاه وحيدًا إلى جانب والده الذي حُرم منه لسنوات، تمنى على الأقل أن يذهب محسن فهو لا ينبغي أن يكون هنا!

عادوا جميعًا من الزيارة التي حاول أن يطيلها قدر ما يستطيع ولم يغادر المقبرة إلا بوعد من والدته أن يعودا في وقت قريب.

بعودتهم إلى البيت، جرى سعيد نحو والده بتلهف وهو يكرر الكلمة التي قالها هو نفسه طيلة سنوات بالشغف نفسه: "بابا"! ضمَّه محسن إليه. تحاشا قدر الإمكان أن ينظر نحوهما، صك أسنانه بغيض وجرى نحو غرفته متجاهلًا نداء والدته له، أغلق على نفسه الباب وأكمل بكاءه الذي بدأه في المقبرة، وكل محاولات محسن ليسمح له بالدخول بآءت بالفشل، حتى محسن بدأ يشعر بتغير تصرفات خالد نحوه، شكا لفاطمة هواجسه لكنها حاولت قدر الإمكان إقناعه بإنه على خطأ:

- تغيرتْ تصرفات خالد نحوي منذ معرفته بوالده!

- هو فقط حزين، كان علينا أن نخبره من قبل.
- لكني والده، أرجو ألا تنسي ذلك.
- لم أنس ولا هو كذلك، كل ما في الأمر أنه يحاول أن يستوعب الوضع الجديد.

لم تكن والدته صادقة بحدسها، فلم يكن الأمر بالنسبة له مجرد حقيقة اكتشفها وانتهى الأمر، بل كانت حقيقة لبداية جديدة، زادها سوءً ضغط محسن عليه وإصراره على تحميله المسؤولية منذ وقت مبكر، فهو ليس والده ليسمح لنفسه بالتعامل معه بتلك الطريقة...

ضبطته والدته نهار أحد الأيام كما تفعل دائمًا وهو يراقب من نافذة غرفته محسن وهو يلعب مع سعيد في الحديقة. مسح دموعًا وجدت طريقًا سالكًا على خديه وهو يلتفت لها:

- لا أذكر أنه لعب معي أو احتضنني كما يفعل مع سعيد.
- لعلك لا تذكر، لكني أذكر جيدًا سعادته وهو يحملك رضيعًا بين يديه. كان يعود من عمله مخصوصًا كي يحملك قليلًا ثم يغادر، لم يكن يقدر على النوم إلا وأنت في حضنه.
- كان!

أكمل وهو يعيد الستارة إلى مكانها:

- كان فعل ماض يا أمي، الآن لا يذكرني إلا عندما يحتاج مني شيئًا أو يريد أن يؤنبني أحيانًا على أمور لا علاقة لي بها.

- يريدك أن تتحمل المسؤولية، مسؤولية نفسك وإخوتك.
- أدفع ثمن ما يقدمه لي!
- خالد! محسن والدك الذي رباك وليدًا ولا يوجد أب في الوجود يطالب أولاده بدفع ثمن رعايته لهم!

وقبل أن يجيب أتاه صوت محسن مناديًا عليه ليناوله كوب ماء وحبوب الضغط من غرفته، تحرك وهو يتمتم:

- "ناس لهم الدلال واللعب وناس لا يتلقون إلا الأوامر!"

خرج وصفق الباب خلفه بقوة، شيعته بنظرات مؤنبة، ثم وقفت حيث كان يقف. كان زوجها يقضي بعض الوقت مع سعيد ورنا لا تسعه الدنيا من الفرحة، ابتسمت وهي تراه يضحك من قلبه ثم لم تلبث الابتسامة أن ماتت في شفتيها، حين أعطاه خالد دواءه ثم انسحب بهدوء. تمنت لو يبقى معهم قليلًا، ويتخلص من الشعور بالنفور والغيرة الذي يتآكل تحت وطأته قلبه الصغير.

توقف خالد عن معاندة معلماته في المدرسة بإصراره على ربط اسمه باسم محسن، وفي أعماقه أخذت الحواجز تضرب بجذورها بينه وبين الآخرين.

توقفت سيارة إسعاف على مدخل المستشفى فجذب خالد نفسه من أفكاره وذكرياته وراقب الممرضين وهم ينزلون أحد المرضى وبعده تولول سيدة في منتصف العمر. راقبهم حتى اختفوا، وأغمض عينيه محاولًا التوغل أكثر في الماضي لكنه عجز، فصوت سيارة الإسعاف أخرجته بغتة

من رحلته. غادرت سيارة الإسعاف فعاد للمدخل بعض هدوئه، شعر ببرودة الجو فأغلق نافذة السيارة، فلا معطف لديه ليرتديه. تمنى لو يخف الضجيج قليلًا في رأسه ليجمع الخيوط المتضاربة بعشوائية في أعماقه، شعر بحنين لزيارة قبر والده وحنينًا أكثر لحضن محسن، الوالد الذي أحبه أكثر من أي شيء، قبل أن تظهر عقدة الميم في حياته. حتى سعيد راوده بشيء من الحنين له، لكنه يدرك أنه لن يتجرأ على القيام بأية شيء مما يتمنى القيام به سوى زيارة قصيرة لقبر والده.

شعر أن رأسه سينفجر والهواء ينعدم أكثر من السيارة. مضطرًا فتح النافذة محتملًا لسعات البرد القارسة وهي تتسلل من قميصه. ورغم برودة الجو لكنه أغمض عينيه وبدأ يغيب بين طيات الصور والأطياف المتداخلة وهو بينها طفل صغير. طيف جده لوالدته وهو يتصارع مع أخيه، كان الآخر قويًا وضخمًا، لكن جده انتصر في النهاية. نظر نحوه بنظرات فخر واعتزاز قبل أن يحلق إلى السماء ويغيب خلف السحب الكثيفة، ليقترب منه طيف والده حسن الذي قهقه بصوت مرتفع وهو يعلو مرتفعًا، حاول اللَّحاق به، لكنه تعثر وسقط فضرب الأرض بيده وانخرط بنوبة بكاء طويل. حملته ذراعان قويتان، مسح دموعه ونظر نحو صاحب الذراعان، كان محسن الذي ضمه إلى صدره وهدهده حتى داعب جفونه النوم، لكن ما تلبث صرخة استغاثة أن توقظه، تلفت حوله ليجد سعيدًا غارقًا في دمه، يستغيث به ويمد يده إليه طالبًا منه المساعدة، بحث عمن يساعده لكن لم يجد أحدًا، حاول الاقتراب من سعيد لكنه خاف أن تبتلعه بركة الدم التي أخذت تسحب سعيدًا إلى أعماقها والآخير يستغيث بهلع، تراجع خطوات إلى الخلف، أغمض عينيه حتى لا يرى البركة وهي تبتلع سعيدًا،

لكن الصراخ أجبره على فتح عينيه مجددا، استجمع قواه وتوغل بخطوات سريعة نحوه، أمسك بيده وشَدَّه بكل ما تبقى له من قوَّة، سحبه أخيرًا وجلس إلى جانبه، وتابع الاثنان البركة وهي تبتلع نفسها حتى اختفت تمامًا. انتابه شعور بالراحة أن غلب خوفه وأنقذ سعيدًا من الموت، التفت نحوه ليطمئن عليه فإذ بنور قوي يجبره على تغطية عينيه بذراعه، انتظر قليلًا وحاول فتحهما مجددًا، كان الصباح قد طلع والشمس اتخذت مكانها في السماء وهو في سيارته غارق في أحلامه وكوابيسه.

فرك عينيه محاولًا التأقلم أكثر مع الأشعة الساقطة على عينيه "كم الساعة الآن؟!" تساءل بصوت نائم وهو يراقب موقف المستشفى وقد عادت له حركة النهار ونشاطه: "التاسعة والنصف صباحًا" هذا ما أخبرته به الساعة التي على معصمه. اعتدل في جلسته وأعاد الكرسي إلى وضعه الطبيعي. فكر في زيارة والدته لكنه آثر العودة إلى البيت ليرتِّب نفسه وأفكاره قليلًا.

❋❋❋

٩

انشغل سعيد خلال الأيام الأولى من عودته بموضوع أخته رنا وخطيبها الذي لا يرتاح له أحد غير والده. لم يكن بالأمر السهل إقناع والده، الذي لم يؤثر مرضه على عناده، بإن رنا لا تقبله وأنه لا يستحق أن يكون فردًا من العائلة ولا حتى الشركة، لكنه حاول معه وبمساعدة رنا ووالدته حتى اقتنع محسن أخيرًا بفسخ خطوبتها منه بعد أن أخبرته باكية أنها لا تريده. وبعد تردد وافق محسن على فسخ خطوبتها منه وتولَّى سعيد تبليغ سامي بالأمر، محذرًا إياه أن يزور والده مجددًا، تنفست رنا الصعداء أخيرًا، وغمرها الشعور بالارتياح، فموافقتها لم تكن أساسًا إلا لإرضاء والدها على أمل أن يعود سعيد لايقاف إتمام الزواج. بعد أن انزاح عن كاهلها أمر سامي، عادت لتلح على سعيد أن يخبرها بما دار بينه وبين زوجة أبيه:

- ألن تخبرني ماذا كانت تريد خالتي فاطمة منك؟! سألته بغتة.

حاول التهرب لكن لم يجد بدًّا من الحديث معها، هو نفسه أراد أن ينفِّس قليلًا عمَّا في صدره.

- خالد! تقول إنه مريض ويحتاج إلى مساعدتي.
- كم أشفق عليه.
- ماذا؟! تشفقين عليه؟ وهل أنا من آذيته؟!
- لست أنت، لكن...
- لكن ماذا؟

- هل تنكر أنك كنت تهتم لأمره أنت أيضًا؟

- كنت، وانتهى الأمر منذ أن وضع هو حدًا لكل هذا. حاولت رغم نفوره مني ورغم محاولاته لإبعادي عن طريقه وكأني كلب لا يريد الاقتراب منه!

- لا تقل هذا أرجوك، خالد كان يعاني دون أن ينتبه له أحد.

- كيف؟!

- لا أنكر أنه كان يثير فضولي بساعات جلوسه الطويلة في الحديقة، وصمته المطبق، كنت أشعر أن صمته يحوي كلامًا كثيرًا، خاصة بعد أن لمحتُهُ مرَّة يبكي بصمت وحرقة.

- يبكي!

- نعم.. راقبته مرارًا ولاحظت شروده وتسمّره الطويل على صفحة واحدة من الكتاب الذي يمسكه، لا يقلب الصفحة ولا يبدو حتى أنه يقرأ. تشجعت مرة واقتربت من كتبه حين ترك كتابه وذهب ليجيب والدي، كانت صورة عمي حسن رحمة الله عليه هي ما تبقيه شاردًا لوقت ليس بالقصير، أدركت بعدها أنه يشتاق لوالده ويشعر بالغربة رغم أنه معنا. للأسف لم ينتبه له أحد وتركناه جميعًا لصمته وعزلته.

- لكن والدي اعتبره ولده ولم يقصِّر في حقه.

- هل ذقت اليتم من قبل؟!

- لا.
- إذًا لا تتحدث عن شيء لا تعرفه.

ألجمته الجملة فصمت ولم يدر بما يرد، لتواصل حديثها بنبرة جادة ومندفعة:

-وضعت نفسي مرارًا مكان خالد، فوجدت الأمر صعبًا. والدي أصبح عنيفًا في السنوات الأخيرة، ما عاد ذلك الذي كان يلعب معنا ويتحمل هفواتنا، وخالد للأسف تلقى النصيب الأكبر. نحن نتلقى العتاب من والدنا حتى وإن أثَّر فينا الأمر فهو والدنا، لكن خالدًا بكل تأكيد وفي كل مرة يتلقى تعنيفًا من والدي يذِّكره بوالده الراحل، وربما يضع مقارنة وهمية في باله بين تصرفات أبي معه وتصرفات والده معه لو كان حيًا!

هز سعيد رأسه موافقًا دون أن يتحدث...

- والآن؟ سألته.
- ماذا؟
- هل ستلبِّي دعوة خالتك؟!
- لا أستطيع، الأمر خارج عن إرادتي.

لم تعقِّب رنا على إجابته وهو لم يكن لديه شيء آخر ليقوله، لذا وجد نفسه مضطرًا ليغادر الغرفة قبل أن تفتح باب الحديث مجددًا، فأمام حجتها لم يكن قادرًا على الاستمرار في المجادلة.

عاد سعيد إلى غرفته وهناك استعاد كلمات أخته: "اللئيمة، نظنها الطفلة التي لا تعي شيئًا وهي تدرك أمورًا أكثر منا بكثير." لا ينكر أنه هو نفسه شعر بالفضول للدائرة التي حبس خالد نفسه فيها، أراد مرارًا أن يعرف ماذا يدور في رأسه وسبب صمته الطويل، تمنى أن يخترق الحاجز الذي يفصله عنه، بل حاول لكنه دائمًا كان يمنى بالفشل، وحين يفشل يسعى لاستفزاز خالد لا لشيء سوى رغبة منه لجذب انتباهه ليقول له أنا هنا اسمعني وانظر إلي!

قد تكون رنا على حق، فخالد عانى طوال سنوات دون أن ينتبه له أحد أو يدرك أن خلف عزلته وعناده الهادئ براكين غضب تبدو هادئة لكنها ليست كذلك. لكن ماذا عنه هو؟! فهو أيضا كان يرزح تحت معاناة من نوع آخر، ففي الوقت الذي كان والده يضغط على خالد كي يكون رجلًا ناضجًا، لم يكف يومًا عن النظر إليه بأنه صغيره الذي لا يكبر أبدًا، ولا يمكن الاعتماد عليه، لا يراه ينفع ليأخذ مكانه كما يرى في خالد ذلك. لم يضايقه سوى رفض والده أن يعطيه الفرصة ليثبت جدارته كما أمعن بإعطاء الفرص تلو الأخرى لخالد، فهو على استعداد لأن يسلم خالدًا مفاتيح سيارته وبيته وحتى مكتبه الخاص، بينما إن جلس هو خلف مقود السيارة جرى والده نحوه بهلع وكأنه طفل صغير لا يعتمد عليه، مع أنه علَّم خالدًا القيادة وهو في الرابعة عشرة من عمره. كان هذا الخوف المشوب بعدم الثقة يتعسه أكثر مما يسعده، أحيانًا كثيرة تمنى أن يكون مكان خالد، يناديه أبوه ويعطيه مفاتيح مكتبه الخاص الذي لم يُسلِّمه لأحد قط سوى خالد، ليقود سيارة أبيه الخاصة ويذهب ليحضر له بعض الأوراق التي تقدر قيمتها بالملايين، في الوقت الذي كان مثل هذا

الطلب يرسم علامات التذمر في وجه خالد يعتصر قلبه بالألم ويتمنى هو لو يحصل على شيء يسير من هذه الثقة. لم يكن ليحلم بشيء سوى أن يكون مثل خالد، أن يحظى بالمكانة التي حصل عليها الأخير في قلب محسن، ويحوز على تلك الدرجة من الاعتمادية والثقة والزج به ليكون الرجل الأول في العائلة.

انتزعته رنا من دوامة أفكاره وهي تفتح عليه باب غرفته:

- سعيد... علينا أن نذهب إلى المستشفى!

اعتدل في جلسته محاولًا الفهم! أخبرته أن خالته فاطمة في المستشفى، وفي الحال كان في طريقه إلى هناك رفقة أمه وأخته.

طوال الطريق لم يتوقف سعيد عن لوم نفسه، شعر أن تجاهله رغبة زوجة أبيه كان سببًا فيما حدث لها. لا يدري بأي وجه سيقابلها وهو الذي خذلها في أول مرة تطلب منه مساعدة، كان بمقدوره أن يلبي رغبتها ولو من باب تطييب خاطرها أو على أقل تقدير أن يعتذر لها.

عندما دخلوا غرفتها كانت ممددة على سريرها، وحولها أختاها وابن إحداهما، على الأرجح هو ابن الكبيرة منهن، فطوال الوقت لم تتوقف عن إنهاكه بالطلبات التي يلبيها دون أن يتذمر. تأخر خطوات حتى انتهت والدته وأخته من الاطمئنان على فاطمة، وأخيرًا اقترب منها، دون أن ينظر إلى عينيها، أودعها قبلة على جبينها وهمس في أذنها بكلمة اعتذار.

- لا عليك. ردت عليه بصوت خافت.

تمنى أن يسمع عتابًا ولو صامتًا، نظرة غاضبة أو معاتبة لكن حتى عيناها قالت: لا عليك، لست غاضبة منك، وهذا ما زاد شعوره بالذنب أكثر. قبَّل يديها وتراجع للخلف تاركًا لأمه وأخته المجال للحديث معها. جالت عيناه في الغرفة وخارجها بحثًا عن خالد لكن لم يجد له أثرًا. انتهت الزيارة سريعًا وعادوا جميعًا إلى البيت، وفي طريق الخروج سأل الشاب عن خالد فاعلمه أنه عاد إلى البيت ليستريح، شكره وواصل طريقه. أوصل سعيد والدته وأخته، ثم غاب في غرفته بعض الوقت قبل أن يغادر البيت مجددًا.

❋❋❋

١٠

قاد سعيد سيارته وأوقفها أمام العمارة التي تقطنها زوجة أبيه وابنها خالد. نزل منها ومشى بخطوات سريعة إلى مدخل العمارة، وكأنه يخاف أن يتردد بالمضي قدمًا. وأمام الشقة توقف دون أن يضرب الجرس، خالد في الداخل وهو يقف هنا، بينهما جدار فقط كما في السابق. يتذكر المرات الكثيرة التي وقف فيها أمام الجدار الذي يفصل غرفتيهما، تمنى أكثر من مرة ألا يكون موجودًا، أراد بشدة أن يخترقه بعينيه ليرى كيف يعيش ذلك العنيد الصامت نهاره وليله. طالما تساءل هل يواصل صمته حتى في غرفته أم أنه يخاطب نفسه، أو الأشياء من حوله؟ هل هو أيضًا يقف خلف الجدار الخاص به ويحاول اختراقه بعينيه وفكره أم لا يكاد يشعر حتى بوجوده؟ كم كره حبه وتعلقه به، كلما أقسم ألا يعتبره موجودًا في البيت يزيد مراقبته والبحث عنه.

ها هو يقف هنا الآن، على بعد خطوات منه. كل ما يتطلب منه أن يقرع الباب ويكون أمامه، كما كان يفعل في السابق، يستجمع قواه ويقف على باب غرفة خالد، يردد الكلمات التي قرر أن يقولها له، يعاتبه أو حتى يصرخ في وجهه، لكن سريعًا يتقهقر ويعود من حيث أتى، فما أسهل التخيل وأصعب التطبيق، فما الذي كان سيتغير حينها: "اغرب عن وجهي واتركني وشأني." هذا ما كان سيقوله له خالد حينها وهذا ما سيقوله له الآن. هل تراه سيقول ذلك، ولمَ لا؟! عند هذه النقطة من التفكير شعر برغبة للذهاب بعيدًا، ما كان عليه أن يأتي وليس حتى ملزمًا بالإقدام على هذه

الخطوة. لماذا أتى هنا أساسًا؟ وماذا سيقول؟ هو لم يفكر حتى بشيء يقوله لخالد إن فتح له الباب، لولا تلك العجوز الطيبة ما وقف هنا أصلًا.

استدار ليمشي مبتعدًا، في الوقت الذي فُتح فيه الباب، وبحركة لا إرادية استدار مجددًا لتقع عيناه على عيني خالد الذي بدت الدهشة عليه وهو يراه واقفًا هنا!

لا يدري كم مر من الوقت وكلاهما يحدق في وجه الآخر، لكنه شعر بحرارة أنفاسه، ارتعاشة خفيفة في شفتيه، تسارع في نبضه، ثمة سُحب من الدخان غطت على عينيه، رغبة جامحة للانقضاض على خالد وإشباعه ضربًا، أن يشوه وجهه بلكمة من يده، أن يثأر لنفسه ولو لمرة واحدة، كور قبضته، واستعد للانقضاض!

- هل تبحث عن أمي؟! قالها خالد بصوت هادئ.

- كنت عندها في المستشفى قبل أن آتي إلى هنا.

رد وهو يبسط يده ويريح قبضته، ففتح خالد الباب أكثر فاسحًا المجال لسعيد ليدخل دون أن ينطق بكلمة، أمام تلك الحركة لم يجد سعيد بدًا من الدخول. دارت في رأسه فكرة "هل كان سيفعل المثل لو كنت طرقت عليه باب غرفته فيما مضى!" وبطريقة آلية وقف في منتصف الصالة يتطلع إلى الأثاث البسيط الموزع بمنتهى التنظيم والأناقة، لمسة زوجة أبيه تبدو واضحة، لها بصمتها الخاصة وحضورها القوي أينما تحل:

- لماذا أتيت؟!

فاجأه صوت خالد الذي بدا عدائيًا على خلاف ما كان قبل ثوان.

- بصراحة سؤال وجيه، لكن أنا نفسي لا أعرف إجابته.

لم تكن إجابته بأقل عدائية، فقد استفزه الأسلوب وشعر بالندم لأنه قبل الدعوة ودخل. سريعًا استعاد رغبته بإشباع خالد ضربًا، ليأخذ بحقه منه، فقط ينتظر الفرصة المناسبة.

- تأذيتَ يومها؟! سأل خالد.
- على الأقل لم أمت!
- الموت راحة في أوقات كثيرة.
- أرحم من كوابيسك المزعجة!
- لا شأن لك بي وبكوابسي، هذا شيء يخصني ولا يخص أحدًا سواي.
- معك حق.
- إذن.. لماذا أتيت؟"
- لأرد لك الدين الذي في رقبتي!

وبدون أن يترك فرصة لخالد انقض عليه وراح يكيل له اللكمات على أنفه وفمه: "سأذيقك طعم الدم الذي ذقته ذلك اليوم!"

- تفضل بالجلوس!

انتزعه صوت خالد الهادئ من خيالاته، جلس وهو يحاول إخراج نفسه من موجة الغضب الخفية في أعماقه ورغبته القوية لضرب خالد، فهو بكل تأكيد لم يأت هنا ليتعارك معه!

جلس خالد على الكرسي المقابل، يسترق النظر إليه من حين إلى آخر، ثم يعاود تشتيت ذهنه بالتركيز في نقطة خفية لا يراها أحد سواه. ها هو سعيد يجلس الآن أمامه، ثلاثة أعوام كاملة وهو لا يفارقه، طيفه دائمًا في الجوار، ورائحة دمه لا تفارق أنفه، يخشى الاستحمام ويعتبره عذاب من نوع قاسي، فما أن يفتح الماء على جسده حتى يشعر بلزوجة مقززة تستبيح جسده.

قاتل! ترددت في أعماقه وهو يتخيل نفسه يهشم رأس سعيد. اعتصرت الكلمة قلبه، أغمض عينيه ليقدر على بلعها. عندما فتحهما كان سعيد ينظر إليه، تلك النظرة الجامدة التي يعجز عن فهمها أو فهم ما يريد منه. شعر برغبة في الهروب والاختباء في غرفته، لكن هل يضمن أن سعيدًا سيبقى هنا ولن يلحقه جسدًا أو حتى طيفًا ليقتص منه. طالما اقتص منه طوال السنوات الماضية، كان يشعر بالقهر لأنه ظل يدفع ثمن غلطة لم يع تفاصيلها.

ظل يصور نفسه مجنيًا عليه لسنوات طويلة. رزح قلبه تحت مشاعر الألم واليتم والقهر وحتى الغيرة، غيرة من الجالس أمامه، ففي ليلة وضحاها سرق منه والده، وحياته، وحضنًا دافئًا طالما تمرغ فيه. لم يكتفِ بإذاقته اليتم فقط، بل أمعن أكثر بإذلاله وهو يراه يرتمي في حضنه ويحصل عليه بالكامل، بينما هو لم يعد يحصل عليه إلا بدافع الشعور بالمسئولية وربما الشفقة بعد أن كان خالصًا له...

- من الصعب أن تكون نكرة بالنسبة لأحدهم!

قالها سعيد بغتة فرفع خالد بصره نحوه بذهول. هل يعقل أن سعيدًا يقرأ أفكاره بهذه الشفافية، أم أنه هو من يكشف نفسه بسهولة!

- ماذا؟! تساءل خالد.

- لا شيء مجرد هاجس. رد سعيد وهو يتلفت حوله محاولا التهرب من نظرات خالد الفاحصة. ما الذي دهاه ليكشف نفسه بهذه الطريقة، ما الذي دهاه حقًا!

- أتدري، معك حق! قال خالد ولا تزال نظرات الاستغراب في عينيه.

تمنى سعيد حينها لو يهرب قبل أن يكمل خالد كلامه، فلا داعي لمزيد من الإهانة بينما أكمل خالد: "شعور مؤلم بحق والأكثر إيلامًا أن تمعن في الهروب والتقوقع في أعماق ذاتك. تقول لنفسك سأكون بخير فإذا بك تنصهر وتذوب كما يُذاب الحديد الصلب داخل بوتقة، فإذا ما لامست الحرارة برودتها انفجرت وتناثرت أجزاؤها بين حنايا الروح."

- كيف عرفت؟ سأل سعيد باستغراب.

- عرفت ماذا؟!

- لا شيء.

في الوقت الذي كان سعيد يقول لا شيء، كان لسان حال خالد يصرخ: كيف؟!

كيف لسعيد أن يقول ما يجول في خاطره هو، أن يفهم ما يفكر فيه، أن يبدأ بما يسهل عليه هو أن يكمله بنفس الانسجام وكأنهما يتحدثان

لغة واحدة، ويصفان شعورًا واحدًا. حاول تحاشي النظر إليه كي لا يسمح له أن يقرأ المزيد، وإن خالجه ارتياح عميق أن يقرأه سعيد بتلك السهولة، لكن هل فعلا قرأه هو أم...؟ توقف عند هذه النقطة وركز على عيني سعيد محاولًا أن يغوص فيهما قدر الإمكان وهو يقول:

- نظراتك هذه قتلتني لشهور طويلة، لو أنك دافعت عن نفسك حينها أو حتى ثأرت لنفسك مني لكان أهون عليّ.
- ألن تسألني لماذا أنا هنا؟.هرب سعيد من السؤال بسؤال آخر.

مضت لحظات من الصمت قبل أن يجيب خالد بصوت شعر أنه قادم من أعمق نقطه في جوفه:

- طالما كنت هنا، ربما حتى قبل أن أنتقل للعيش أنا ووالدتي، أنت لم تذهب أساسًا حتى تأتي.. فكل ركن من أركان هذا البيت شهد على حضورك، تمامًا كما شهد على تعاستي، وجدتني أصحو من كابوس إلى كابوس آخر أكثر رعبًا، ما عاد هناك مكان آخر أهرب إليه، تعبت من الهروب والاختباء!

في كل مرة يتحدث خالد يجد سعيد نفسه يُحشر أكثر في زاوية الصمت، تتسرب منه كلماته حتى بات يبحث عن كلمة واحد للرد على خالد ولا يجد. جاء إلى هنا وفي باله أنه سيقابل جدارًا صلبًا، في أسوأ الأحوال سيوجه له لكمة على فكه ثم يرحل، لكن هدوء خالد ونظرة الحيرة في عينيه صدمته، وما عادت تجدي الكلمات التي كان يحضِّرها. اكتفى بالصمت منتظرًا أن يتحدث خالد أكثر عله يفهم ما يدور في خلده، لكن خالدًا أيضا التزم الصمت.

بالنسبة لخالد كان الأمر أكثر صعوبة بوجود سعيد أمامه في هذه اللحظة. بدأ يشعر بكوابيسه وأطيافه تحيط به وتحول بينه وبين رؤية وجه سعيد. هز رأسه كي تختفي، لوهلة أوشك أن يستنجد بسعيد كما يفعل خلال كوابيسه، أن يقول له ساعدني، حررني، أطلق سراحي فما عاد بي قوة لتحمل المزيد. تحرر الطيف من مخيلته وطار محلقًا فوق رأس سعيد، قبل أن يحلق عاليًا ويختفي بين طيات السقف، ليحل محله طيفه هو، خالدا آخر يتراقص أمامه، يضحك بطريقة شيطانية، والدماء على يديه وقميصه. هاله أن يرى نفسه بهذا الشكل البشع، علت عينيه نظرات اشمئزاز وتساءل هل هذا انعكاس لما هو عليه أم ماذا؟! اقترب الطيف من سعيد وحام حوله وهو ينظر نحوه بنظرات ملؤها الشر، رفع يديه عاليًا وكاد أن يهوي بها على رأس سعيد!

- كفى أرجوك، ارحل من هنا!

صاح خالد بطيفه كي يبتعد عن سعيد، بهت سعيد من تبدل نبرة خالد ونهض من فوره، ظنًا أن الحديث موجه له.

- حسنًا، سأرحل، لا داعي لهذا الصراخ. قال وهو يرتب هندامه.
- لا أقصدك أنت، أرجوك ابق!
- ماذا؟
- لا عليك، سأحضر لك شيئًا تشربه!
- لا داعي لذلك، عليَّ أن أرحل. قال سعيد وأكمل وهو يخرج من جيب معطفه علبة صغيرة: "أتيت فقط لأجل هذه... فعندما

وقفت أمامك ذلك اليوم لم يكن بنية الجلوس لاستذكار دروسي، كانت مجرد مداعبة أردتك أن تقف كي أسلمك هذه." وضع العلبة على الطاولة. كنتَ دائمًا تلتزم الصمت وكنتُ أراقبك بصمت أحاول التقرب من أخي الأكبر ولو...

- يومها لم أفكر بقتلك، لا أدري كيف حدث هذا، وما الذي دفعني لارتكاب تلك الحماقة، لكن صدقني لم أفكر بأذيتك يومًا!

هز سعيد رأسه وغادر دون أن يلتفت إلى خالد. كان يتلفت بحثًا عن طيفه الشقي ولكنه كان قد رحل هو أيضا. نظر إلى الساعة التي تجاوزت الثانية عشر، عليه أن يذهب للاطمئنان على والدته، وقبل أن يخرج فتح العلبة التي وضعها سعيد على طاولة الشاي، لتعلو وجهه نظرات دهشة.

قبل الحادث بأكثر من أسبوع، كان في السوق رفقة عمه محسن وسعيد لشراء بعض متطلبات البيت، كان يتجول وحيدًا بين ممرات المركز التجاري، وعلى الواجهة الزجاجية لأحد المحلات شد انتباهه ساعة أنيقة، كان سعرها مرتفع لذا اكتفى بالنظر إليها فقط.

- هل أعجبتك هذه الساعة؟! سأل سعيد.
- هذا الأمر لا يعنيك! رد عليه بجفاء وانصرف ليأخذ سعيد مكانه في مراقبة الساعة.

أراد أن يلحق بسعيد ليسأله لماذا الساعة معه لكنه تراجع، أعاد الساعة إلى مكانها وغادر إلى المستشفى.

***

١١

استقرت حالة فاطمة وما عاد من ضرورة لبقاء أخواتها. فأوصلهن خالد إلى موقف الحافلات وعاد إلى المستشفى ليرتب مغادرة والدته.

لم يكن راغبًا بالحديث معها في أي شأن. كل ما أراده هو بعض الهدوء والسكينة، ترتيب أفكاره، وما ينبغي عليه القيام به. لم يشعر بنفسه إلا وهو يعاود الوقوف على الجهة المقابلة لبيت محسن كلما سنحت له الفرصة، بيته الذي لم يعرف مكانًا سواه. هل لهذا السبب كان يأتي إلى هنا دائمًا؟! حنين إلى وطن سكن في أعماقه، طوال الوقت كان متذمرًا من البقاء فيه، وحين غادر شعر أنه لا يملك هوية أو وطن! اجتاحته رغبة لتخطي الشارع الذي يفصله عن موطنه، لكن كيف يمكنه القيام بهذا وقد أصبح مجرمًا بحقهم جميعًا، حتى بحق والدته التي ظلمها لسنوات طويلة. كاد أن يتقدم نحو البوابة الحديدية، لولا أن اعترضته سيارة مسرعة. حين ابتعدت السيارة كان يبتعد هو أيضًا عن المكان دون أن يتلفت إلى الخلف!

اضطر لتمديد إجازته وملازمة البيت. يجهز لوالدته وجباتها ولا يفارقها حتى تنهي أكلها. يناولها دواءها، ويجلس بجانبها حتى تنام. كان قليل الكلام، وهي بالكاد تنطق بكلمة. تكتفي بمراقبته والسؤال عن حاله بنظراتها المعاتبة. وكلما جلس إلى جانبها يتذكر ما قالته خالته في المستشفى.

لماذا ليست مثل خالته سلوى، تفضي إليه بتفاصيل ماضيها معه، تبوح له بمشاعر الخوف والقلق وحتى الحزن التي عايشتها في حياتها، تشاركه ماضيها وحاضرها ليجد الشجاعة ليشاركها هو حياته ودواخل نفسه بدلًا من إبقائها حبيسة ذاته حتى كادت أن تحرقه.. "ليتها فعلت"، ليتها ضمته إلى نقطة أعمق من صدرها ليتعدى رعايتها له احتواء قلبه الصغير.

سألته والدته قبل أن يغادر الغرفة:

- هل تعتني بنفسك جيدًا!
- لا تقلقي، أنا بخير.
- تعال واجلس بجانبي، قل لي هل تتناول حبوبك بانتظام؟ أم تواصل ليلك بنهارك؟
- قلت لا تقلقي، أنا بخير! أجابها وغادر الغرفة.

شعر برغبة لتحريك سيقانه واستنشاق نسيم المساء البارد، فقرر القيام بجولة مسائية. اطمأن على والدته ثم غادر. ساقته قدماه إلى حيث يقبع البيت الكبير بسلام، إنارة خافته للغرف السفلية بينما الدور العلوي صامت وهادئ هدوء الليل، حتى غرفة سعيد مظلمة: "لعله قد نام." خاطب نفسه.

نظر ناحية بوابة البيت الحديدية، رأى خالد الطفل يقف أمامها وهو يستعجل بابا "محسن" ليخرج بسرعة، والأخير يمشي بتثاقل، وحين

يصبح بجانبه ينقض عليه ويحمله، حينًا يقبله وحينًا آخر يعضه، ليغرق كلاهما بالضحك.

"أشتاق إليه..." تمتم وهو يمسح آثار دموع تسللت إلى عينيه، ودون شعور منه خطا ناحية البوابة. في كل خطوة يتقدمها يشعر بنبضه يتسارع، كان يسمع صوت قلبه وهو يقرع كدقات الطبول أكثر مما يسمع صوت حذائه على الشارع الأسفلتي. وقف أمام البوابة ثم دفعها. كانت مفتوحة لحسن حظه. ألقى نظرة على الحديقة شبه النائمة. في الماضي وفي مثل هذه الساعة من المساء لم تكن نائمة. تحاشى النظر إليها أكثر، توجه إلى باب البيت، قرع الجرس وانتظر، سريعًا أطلت عليه زوجة أبيه فادية، توقع أن تطرده لكنها لم تفعل، فقط ظلت تنظر إليه بصمت!

- عفوا أتيت لـــ....

توقف بغتة، فهو حقًا لا يدري لماذا يقف هنا الآن، تلفت حوله محاولًا العثور على كلمات يختم بها جملته لكنها كفته عناء البحث: "البيت بيتك تأتي في أي وقت، تفضل يا بني"! قالتها وهي تفسح له مجالًا ليدخل. أراد أن يعتذر عن ازعاجها في هذا الوقت، وأن يعود أدراجه لكنها بادرته بالسؤال عن والدته وعن صحتها. أجاب عن أسئلتها دون أن يرفع بصره عن الأرض، وحين انتهت من الأسئلة ولم تجد شيئًا آخر لتسأل عنه، لزمت الصمت هي أيضًا، بانتظار أن يتحدث، لكنه لم يفعل، شعر بارتباك شديد، أراد أن يسألها عن محسن وسعيد لكنه لم يجرؤ.

- والدك في غرفته... هل تريد أن تراه؟! سألت.

نظر إليها باندهاش، ليس لأنها قرأت أفكاره التي لم تتكون أساسًا ولكن...: "والدي!" خرجت من شفتيه بدون شعور ليكمل بصوت أوضح: "نعم أريد أن أراه" نطقها وسحابة دموع تسبح في عينيه، معها حق هذه السيدة التي لم يشعر بها يومًا، وإن كان قد كرهها وشعر أنها سيئة منذ أن شاهد دموع والدته منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها هذا البيت، لكنها على حق، هو لم يأت لرؤية محسن أو سعيد أو أيًا كان، جاء هنا فقط ليبحث عن "والده" الذي كان يلاعبه قبل لحظات قليلة عند بوابة البيت الخارجية ثم اختفى، أو أنه هو من أبعده عنه، بقصد أو بدون قصد.

- "محسن هنا."

قالتها وهي تقوده إلى غرفة في الطابق الأرضي، وأكملت: "ما عاد يستطيع أن يصعد إلى الدور العلوي بعد أن اشتد عليه المرض".

مشى وراءها وكأنها تشده بخيط خفي. لم يشعر برغبة لتفحص البيت وأركانه، فكره مشغول بأمر واحد فقط "والده!" ذلك الذي تاه منه لسنوات طويلة، ويتمنى أن يستعيده، لا يسعه الانتظار أكثر، استجمع كل مشاعر الحاجة في قلبه لتتغلب على مشاعر الخوف من مواجهته، والخجل من الخطأ الذي ظل يعذبه لسنوات، شعر برجفة وهو يقترب من الباب، وأوشك على التراجع حين أصبح داخل الغرفة، التفت محسن نحوه فغير رأيه، وقرر مواصلة البحث عن والده، تقدم خطوات حتى أصبح واقفًا وسط الغرفة. حتى هذه اللحظة كان يشعر بأنه يمشي وهو مغمض العينين، أو لعله أغمضهما بالفعل، فما أن وقف وسط الغرفة، حتى بدأ يستوعب المكان حوله، كانت غرفة جلوس في ما مضى، والآن أفرغت من الكراسي

الأنيقة التي احتلتها زمنًا ووضع سرير بجانب النافذة المطلة على الحديقة، وقع بصره على الكرسي المتحرك الذي يقبع بجانب السرير، اعتصر قلبه الألم وهو يتخيل محسن الذي كان يفرض هيبته وقوة شخصيته على كل من يقابله يلازم هذا الكائن الكئيب وينتظر يدًا ما لتدفعه إلى الأمام، أو يستجمع ما بقيت له من قوة ليحرك هو الكرسي بيديه حركات بطئية وثقيلة. لا ليس هذا محسن ولا ينبغي له أن يكون كذلك، فمحسن أكبر وأقوى من أن يقوضه ويوهنه المرض، كاد أن يصرخ فيه أن ينهض لكن نظرات محسن الحزينة ألزمته الصمت...

مر بعض الوقت وكلٌّ ينظر نحو الآخر دون أن يقول شيئًا، ظل خالد واقفًا في منتصف الغرفة وعلى بعد خطوات منه تقف فادية تنقل بصرها بينه وبين محسن المتكئ على جانبه الأيمن لا يحول بصره عن خالد. أخيرًا حاول تعديل جلسته، لكن نوبة سعال شديدة جعلته يتكور على نفسه، في اللحظة التي أوشكت على التحرك لإسناده، هرع خالد نحوه بحركة لا إرادية كما كان يفعل عندما كان يتعرض محسن لوعكة ما، ينسى ما بينهما من شجار ويهب نحوه يسنده ويأخذ بيده. أحاطه بذراعيه وساعده ليعتدل، ناوله كوب ماء كان موضوعًا على الطاولة بجانب السرير، وانتظر قليلًا حتى هدأ محسن وخفَّت نوبة السعال. أحس محسن بنفسه وهو محاطًا بذراعي خالد، وكأنهما ذراعان قويان نبتا فوق ذراعيه اللتين تعبتا من تحريك عجلة الكرسي. مرت عليه لحظات وهو مستند على خالد، لم يتحرك أو يقل شيئًا، خالد نفسه لم يدر كم ظل ممسكًا بمحسن، لكن داخله شعور جميل ممزوج بالدفء يتسرب بهدوء من كتفي محسن المنكهة إلى أعماقه، رفع ذراعيه أخيرًا وجلس على حافة السرير، ليكون وجهه

بوجه محسن الذي تلمس كتفه بأنامل مرتعشة وعيناه مثبتتان على خالد. كمن يخشى أن يكون وجوده مجرد حلم لا حقيقة، يخشى أن يرفع بصره عنه فيذهب مجددًا، كان كالغريق الذي يتشبث باي قشة تلوح له من بعيد، بادله خالد النظرات نفسها قبل أن ينكِّس رأسه ويكتفي بمراقبة الأرض وأطراف السرير الذي غُطِّي بملاية بيضاء.

- هل والدتك على ما يرام؟ بادره محسن بصوت هادئ.

- نعم... بخير. أجاب دون أن يرفع بصره عن الأرض.

عاد الصمت من جديد، يعجز عن النظر نحو محسن، أو حتى أن يقول له كلمة.

- البيت مظلم من غيركم.

قالها محسن وواصل حديثه بالنبرة الهادئة نفسها:

- كانت حياتي مفعمة بالحياة بوجود فاطمة ووجودك وسعيد إلى جانبي، وها أنتم ترحلون وتتركوني جثة هامدة أنتظر الموت أن يأتيني ويريحني من وحدة وعجز ما عدت أطيقه.

- "بعيد الشر عنك يا عـــــ...".

بتر خالد عبارته والتزم الصمت:

- قلها لمرة واحدة يا بني... قلها لعلها المرة الأخيرة التي أسمعها قبل أن أموت. توسل محسن.

- أبي.. نعم أبي.

قالها وعيناه مركزتان على نقطة ما في الفراغ أمامه، لم يكن ذلك الفراغ سوى تكرار المشهد ذاته؛ محسن الرجل الفتي وهو يحمل خالدًا "الصغير" بين يديه وضحكاتهما تخترقان قلبه، رفع عينين دامعتين نحو محسن وهو يردد "أبي" فتح محسن ذراعيه، ليغوص فيهما وتمتزج أنفاسه مع ضربات قلب محسن الضعيفة، شعر برغبة جارفة ليشبع روحه من شوق استمر لأعوام طويلة، احتضنه محسن، غير مصدق أن ابنه عاد إليه بعد أن فقد الأمل في عودته.

ظلت فادية تراقبهما بصمت تمسح دموعها وتتمنى لو كانت أم خالد موجودة الآن بينهم تراقب الحياة وهي تعود لروح محسن بعد أن فارقته لأعوام وتركته جسدًا لا يقوى على ترك السرير.

- مضت لحظات صمت، لم يحاول خالد أن يسحب نفسه من حضن محسن، ولم يحاول الآخر أن يبعده، أخيرًا أبعده محسن عنه قليلًا، احتضن وجهه بين يديه:

- كنتْ قاسٍ جدًا علي.

ضمه محسن إلى صدره مجددًا، رفع رأسه وأخذ نفسًا، شعر خالد أنه انتزعه من أعماق أعماقه.

- دعوت الله كثيرًا أن تعودا لي.

شعر خالد أن عنده استعداد ليحقق أي رغبة لمحسن طالما أنها ستعيده لسابق عهده، بعد رحيله ووالدته ثم رحيل سعيد إلى أمريكا، لم يلبث محسن أن تعرض لذبحة قلبية، نجا من الموت لكنه أصبح أسير المرض،

ولا يقوى حتى على مغادرة السرير دون مساعدة من أحد. هذا ما ستخبره به زوجة أبيه لاحقًا، وسيصغي إليها وهو يعض على شفتيه من الندم والألم.

- أين سعيد؟! سأل وهو يتلفت حوله.

- سعيد في طريقه إلى المطار. أجابته فادية.

غادر خالد البيت بعد أن وعد محسن أنه سيعود في أقرب وقت. استقل تاكسي إلى المطار متمنيًا أن يحالفه الحظ ويقابل سعيدًا قبل رحيله...

في الطريق إلى المطار ظلت عينا خالد مثبته على النافذة، تتحرك أمامه الشوارع والمشاهد لكن لا شيء غير عدسة عينيه الخارجية تلتقط المشاهد، فكرهُ كان في واد آخر. ظن لوهلة أنه لا يزال جالسًا على السرير بجانب محسن ولوهلة أخرى شعر أنه تحت شجرة البرتقال يقرأ في أحد كتبه. عند إشارة المرور تنبه للمحيط حوله وحركته الدائمة حتى في المساء. إذًا فقد تجاوز البوابة الحديدة، لم يكن الأمر بالصعوبة التي تخيلها. راقب المطار الذي لاح له من بعيد، هناك يفترض به أن يقابل سعيدًا إن قُدر له أن يلقاه قبل أن يغادر. يتمنى ذلك من كل قلبه. تذكر أنه لم يعتذر لمحسن. سيفعل في الزيارة القادمة له والتي من المرجح أن تكون صباح الغد. بوده لو يمتلك الشجاعة ليقدم اعتذاره لسعيد، فهو حقًا مدين له بالاعتذار.

نزل من التاكس مسرعًا، جال ببصره في المكان. وجوه كثيرة تغدو وتذهب، لم يطل الوقت وبدأ يبحث عن سعيد بينهم:

- سعيد!

نادى عليه قبل أن يدلف صالة الانتظار، التفت سعيد نحو الصوت، أفسح المجال لمن يقف بعده ليدخل وسار هو تجاه خالد:

- هل أتيت لتودعني!
- الحقيقة لا... أتيت لأشكرك على هذه. قالها وهو يشير إلى معصمه.
- على الأرجح بدلت بطاريتها. قال سعيد وهو ينظر نحو الساعة وأكمل: رغم أنها وصلتك متأخرة جدًا، لكن الحمد لله أنها أعجبتك.

لم يعلق خالد بل اقترب منه خطوات. صمت برهة قبل أن يتحدث وعيناه مثبتة على عيني سعيد: "أعتذر... حقًا أعتذر."

- لأكون صريحًا معك... كان يفترض بي أن أكون في الداخل منذ زمن، لكن هاتفتني والدتي وقالت إنك في الطريق لمقابلتي، طلبت مني أن أنتظرك لذا انتظرتك." صمت قبل أن يكمل "بصراحة وددت أن أراك قبل أن أمضي."
- أشكرك.
- على ماذا بالضبط؟!
- انتظارك.
- اعتني بوالدي وعائلتي، سأكون مرتاحًا أكثر إن كنت بجانبهم.
- سأحاول.

هز سعيد رأسه وهم بالمغادرة قبل أن يتوقف مجددًا ويسأل خالدًا: بالمناسبة.. هل تعرف أين عثر راعي الغنم على الكنز الذي كان حلم به في المنام.

- ماذا؟
- الرواية التي كنت تقرأ فيها ذلك اليوم، هل نسيت؟!

تفاجأ خالد بالسؤال، فقد نسي الرواية تمامًا، ونسي القراءة أيضًا:

- لا أعرف، أين كان ذلك الكنز؟
- لن تصدق، كان مدفونًا في المكان الذي كان الراعي نائمًا فيه حين حلم به، تحت رأسه تحديدًا!
- حقًا؟!
- أرأيت؟ نطيل البحث عن سعادتنا ونسلك دروبًا وعرة، أحيانًا تبعدنا عن ذواتنا وعالمنا دون أن ندرك أنها قريبة جدًا منا، لكننا نحب التعقيد.

أومأ خالد برأسه وهو يحاول الابتسام، كان سعيد يراقبه طوال الوقت، ماذا يقرأ، وبماذا يهتم، وماذا يحب، لكنه لم يلحظ ذلك، تأمل وجهه، كان لديه أخٌ طوال الوقت لكنه لم يحاول أن يعثر عليه أو يشعر به.

كان كنزه بين يديه طوال الوقت لكنه كان يمني نفسه بالابتعاد، ويحلم باللحظة التي يتركهم فيها للعثور عليه، لم يحاول قط أن يزيح عنه التراب، لم يحاول حتى البحث عن كنزه بصدق وعزيمة كما فعل الراعي ولو فعل لكان وجده وربما باكرًا جدًا.

مد له سعيد يده ليصافحه، فاحتضه "حقًا أنا آسف" همس في أذن سعيد وهو يضمه إليه بقوة.

- "اعتن بنفسك وبالعائلة حتى عودتي"!
- "سأفعل".

مضى سعيد وتابعه بنظراته حتى ابتلعته البوابة الزجاجية.

❋❋❋

١٢

عاد خالد إلى شقته بعد ساعات من الغياب بوجه غير الذي غادر به. ألقى نظرة على أمه النائمة، أقفل باب غرفتها بهدوء كي لا يوقظها، ألقى نظرة سريعة في أرجاء الشقة التي احتضنته لعامين. كم يشعر بالغربة فيها، لم يشعر يومًا بالانتماء لها أو أنها بيته، طوال الوقت اعتبر نفسه ضيفًا عليها بل ضيفًا ثقيلًا عليه الرحيل في أقرب وقت. هل حقًا حان وقت الرحيل والعودة إلى البيت الذي ينتمي إليه ويحبه. ربما. ترددت في أعماقه وهو يدخل غرفته، وأخيرًا ألقى بجسده على سريره، تنهد براحة وهو يتأمل ساعته ويمسح عليها برفق كطفل صغير يداعب لعبته الجديدة.

استعاد لحظاته الجميلة في حضن والده الذي عاد إليه من جديد، وداعه لأخيه سعيد. حانت منه نظرة لكل الأدوية التي تقبع بجانب سريره، ابتسم وأغمض عينيه وما هي إلا لحظات حتى غط في نوم عميق.

❋❋❋

١٣

تململ خالد في فراشة نحو الحادية عشر صباح اليوم التالي. رغم الصداع الذي لازمه طوال ساعات اليوم لكنه شعر أن رأسه خفيفة جدًا، ومزاجه معتدل.. كانت والدته قد سبقته بإعداد الفطور...

- يبدو أن الإقامة في المستشفى قد أعجبتك كثيرًا لذا تودين العودة إليها سريعًا! قال لها مازحًا.
- مللت الجلوس على السرير، والحمد لله أنا أفضل الآن.
- وماذا لو أخبرتك أن تأخرك بالشفاء يؤخر عودتك إلى بيتك؟!

رمقته بنظرة فاحصة، مطالبة بالتوضيح أكثر. لاحقًا أخبرها بتفاصيل زيارته لمحسن وتوديعه لسعيد في المطار، ورغبته بتلبية دعوة محسن للعودة إلى البيت. لم تعلق سوى بنظرات ملؤها التساؤل والقلق، لكن نظراتها تلك لم تخف سعادتها الحقيقية بخبر عودتها إلى بيتها الذي عاشت فيه أجمل أيام حياتها.

بمجرد خروج خالد لشراء بعض حاجيات البيت، أجرت مكالمة هاتفية مع فادية لتسمع منها حقيقة ما أخبرها به خالد. لم تدر هل تسعد أم تقلق؟ وهل خالد جاد بكلامه أم أنه سيغير رأيه، ويعود لسابق عهده بمجرد العودة إلى البيت: "خير إن شاء الله". همست بها في سرها عندما أنهكها التفكير محاولة تهدئة عقلها وانتظار ما سيحمله لها الغد، فما يهمها حقا أنها ستعود إلى بيتها وعالمها وحياتها.

خفّت حدة مخاوفها بل اختفت تمامًا وهي تجتاز الممر المؤدي إلى البيت بعد أيام فقط. كثيرًا ما عادت إلى هنا بعد خروجها رفقة ابنها، لكنها كانت زيارات سريعة للاطمئنان على صحة محسن ومتابعة حالته، تشعر خلالها بغربة تجاه البيت، أو لعلها أقنعت نفسها بهذه الغربة حتى لا تشتاق إليه، وتخونها نفسها ودموعها بمجرد أن تخرج. هذه المرة كان الأمر مختلفًا، تلاشت الغربة نهائيًا، وشعرت أنها تضع قدميها في بيتها مجددًا، وكأنها كانت مسافرة إلى بلاد بعيدة وللتو عادتْ. لم يكن ساكنو البيت فقط من رحبوا بعودتها، بل شعرت أن كل ركن من أركانه يبتسم لها...

بالنسبة لخالد كان الأمر مختلفًا تمامًا، ظل الشعور بالذنب يلازمه طوال الطريق وزادت حدته بمجرد دخوله إلى البيت، لكنه أخيرًا أخرس كل الأصوات التي تعتمل داخله، واستمع لصوت واحد، صوت محسن وهو يرحب به وينادي يا "ولدي". رغبته بدفن الماضي وبدء حياة جديدة ساعدته على التأقلم مجددًا مع جو البيت، واعتبار نفسه أحد ساكنيه... غرفته كما هي لم يتغير فيها شيء، كانت مرتبة ونظيفة للغاية، بدا واضحًا أن تنظيفها سبق عودته بأيام فقط. أسعده أن يُرحب به لهذا الحد، لن يخيب ظن نفسه ولا ظنهم.

بمجرد استقراره في بيت محسن قطع إجازته وبدأ يداوم في عمله، لكن سريعًا طلب منه محسن أن يترك العمل وينتقل للعمل في شركته الخاصة...

- لا أظن أني أنفع لإدارة العمل هنا! بادره بقلق.

- وهل طلبت منك أن تشغل منصب رئيس مجلس الإدارة، فقط كن برفقة عمك أحمد وهو سيعلمك كل شيء، كلها عامان ويعود سعيد ويقف إلى جانبك.

أمام إلحاح محسن لم يجد خالد فرصة للهروب أكثر، بدأ بالفعل العمل في الشركة، ووجد هو الآخر في سمير خير عون وخير صديق. أدرك سمير من اللقاء الأول بينهما أن خالدًا يفتقر إلى الثقة بالنفس، فساعده كثيرًا على استعادتها قبل البدء بأي مهام. خلال شهور بدأ محسن يستعد عافيته، يغادر غرفته، يقضي مزيدًا من الوقت في الحديقة، حينًا يقرأ وأحيانًا كثيرة يُطْلع خالدًا على تفاصيل العمل وبعض البيانات المالية الحساسة.

البيت نفسه عادت له الحياة من جديد، طلبت فاطمة من خالد أن يوظف بستانيًا للاعتناء بالحديقة، وإعادة طلاء الجدران من الخارج وكذا البوابات الرئيسية. لم تكن لتحتمل أن ترى بيتها الذي اعتنت بكل ركن فيه ينهار تحت وطأة الإهمال والحزن أكثر، وكان لها ما أرادت. بدأت من جديد بإعادة الحياة إلى البيت كما فعلت عندما انتقلت إليه قبل سنوات طويلة مع فارق بسيط أنها اكتفت هذه المرة بمهام الإشراف والتوجيه.

عند عودة سعيد من أمريكا لم يُخفِ دهشته من الهيئة الجديدة للبيت.

كانوا جميعًا بانتظاره في باحة البيت، تحت أشجار المانجا المحملة بثمارها الناضجة.

نبذة عن الكاتبة

مياسة النخلاني:

كاتبة قصصية وروائية من مواليد اليمن وتعيش في مدينة تعز.

تخرجت من جامعة تعز، كلية الآداب، قسم أدب انجليزي.

خلال السنوات الماضية نشرت قصصًا قصيرة ومقالات في صحف ومجلات محلية عدة: مجلة نجاح، مجلة الأسرة والتنمية، صحيفة الجمهورية، صحيفة يمن تايمز، وقصص أطفال في مجلة أسامة للأطفال، ومجلة المثقف الصغير.

على المستوى العربي:

كتبت في مجلة الوعي الإسلامي- مجلة كويتية.

نشرت قصصًا قصيرة ومقالات في: موقع الوعي الشبابي، مجلة الأسرة السعودية، مجلة العربية السعودية، مجلة العربي الكويتية، مجلة المجتمع الكويتية، مجلة الدوحة القطرية، مجلة نزوى العمانية، مجلة البيان الإماراتية، مجلة أنهار الأدبية، ومجلة براعم الإيمان للأطفال.

المطبوعات:

- رواية "لقاء قريب" المنشورة ضمن سلسلة إسهام عن إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية.
- مجموعة قصصية "قصص للأطفال" صادرة عن مجلة براعم الإيمان، مجلة أطفال كويتية.

المسابقات:

- فازت بالمركز الأول بمسابقة قصص على الهواء، مجلة العربي، بالتعاون مع محطة بي بي سي العربية، عام ٢٠١٣ بقصة "ليلة باردة".
- فازت بالمركز الأول في مسابقة منى الشافعي للقصة القصيرة للعام ٢٠١٨ بقصة "في محطة القطار".
- فازت بالمركز الأول في جائزة أدب السرد اليمني (حَزَاوِي) في دورتها الأولى ٢٠٢٢م.

❋ ❋ ❋